الأزهر

الإسلام

كما يراه الأوربيون

للأستاذ الدكتور

محمد غلاب

هدية مجلة الأزهر المجانية لشهر المحرم ١٤٣٠ هـ

الأزهر

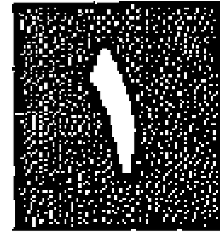
الإسلام كما يراه الأوروبيون

للأستاذ الدكتور محمد غلاب

الأستاذ الدكتور محمد غلاب

باحث فلسفي مستقل

للأستاذ الدكتور
محمد رجب البيومى



مؤلف الفلسفة إذا كان عزوفا منصرفا عن الناس إلا فى دائرة اختصاصه، لا يكاد يعرفه أحد، مهما أكثر من المؤلفات؛ لأن قراءه محدودون، وتلاميذه فى أكثرهم يقرءون ما كتب لينجحوا فى الامتحان، فإذا تخرجوا إلى محيط الحياة تركوا مادته العلمية، وعدوها طلاسم شاقة، تتعب الذهن، ولا تفضى إلى متعة خالبة، فإذا كان هذا المؤلف مضطرا إلى الانزواء، لعلة لحقته فى عينه، بعد تجربة حاولها فى عقد الصلات فلم يوفق، فإن نسيانه يكون أكثر.

وهكذا كان الدكتور البصير «محمد غلاب» أستاذا فى فنه، كثيرا غزيرا فى نتاجه، لم يكد يترك التأليف طيلة حياته فى شهر

من الشهور، حتى إذا جاءه اليقين، أصبح خبرا منسيا، وسكت عنه تلاميذه الأقرباء، كما نسيه معارفه البعداء.

وُلد الدكتور غلاب فى أول يوم من أيام القرن العشرين، ونشأ فى أسرة تعتز بنسبها العربى الأصيل، وترتفع به موثقا - فى رأيها - إلى الجد الأربعين، ومهما يشك شاك من غير الأسرة فى هذه الصلة الممتدة إلى جذور التاريخ، فإنها عند الأسرة تورثها اعتزازا، وكان والده رئيس قريته، ولم تكتمل فرحة طفله به؛ إذ فارقه فى الخامسة من عمره، ثم ضعف بصره حتى نفد، والتحق بالأزهر فكان مبرزا بين أقرانه، ثم أدركته ثورة سنة ١٩١٩، فرجع إلى بلدته ليقرأ علوم الأزهر على عالم أزهرى يتقنها كل الإتقان، فلم تضع أيام الإضراب السياسى عبثا بالنسبة إليه.

ثم دفعته همته إلى أن يتعلم اللغة الفرنسية، وإلى الالتحاق بالجامعة المصرية القديمة، وتنوعت أهدافه فنال الدبلوم العالى بمدرسة الحقوق الفرنسية، وكان الدكتور طه حسين قد رجع من فرنسا أستاذا شهيرا، فأحيا الآمال فى طائفة من أمثاله صمموا على الذهاب إلى فرنسا، ليبلغوا مبلغه، وهكذا ارتحل

غلاب إلى جامعة ليون بفرنسا بعد جهاد شاق من أسرته، ومما يذكره بمرارة أنه حين ركب الباخرة إلى فرنسا من الإسكندرية لم يودعه أحد، مع أن لكل مسافر - حينئذ - مودعا، وعاد فلم يستقبله أحد، ولكنه عاد بالدكتوراه، نالها بمرتبة الشرف مع تقدير التهنئة، وتبادل الرسالة في جامعات باريس، وهو سعيد بما ظفر، فكم من طلاب رجعوا من باريس، واستقبلهم أهلوهم بالميناء الإسكندرى، ولم يحرزوا درجة علمية ما، بل ركنوا للهو استجابة لنزوات الشباب، ولم يكن الدكتور محمد غلاب أحد هؤلاء بداهة.

رجع الدكتور غلاب ليحذو حذو الدكتور طه حسين فى الاتصال بالصحافة، وتوجيه الرأى العام، وأصدر مجلة «النهضة الفكرية» مدى ثلاث سنوات متوالية، لينشئ جيلا من القراء يتشبع بمبادئه الثقافية، وقد التف حوله نفر من الشباب شجعهم على النشر، ودعا طائفة من أساتذة المدارس العليا للإسهام فى نشر المقالات.

ولكن المجلة لم تبلغ ما أراد لها؛ لأن صاحبها لم يتصل بحزب سياسى يعرف زعماءه، ويسير له بمقالاته الحزبية ذِكرٌ فى الناس، كما فعل غيره فى مضماره، بل جعلها مقصورة على

الثقافة والأدب والشعر، وقد لاقت حربا من منافسيها ذوى المجلات الذائعة، فكانوا يصدون باعة الصحف عن ذيوعها، وتمضى إليهم النهضة الفكرية، فترجع فى حبالها كما ذهبت، هكذا قال الدكتور غلاب فى حديثه عن المجلة الموءودة، وإخاله صادقا [1].

وليس الأمر غريبا فى بابه، فقد أنشأ الأستاذ عبدالعزيز الإسلامبولى «مجلة المعرفة» فى هذه الفترة نفسها، فكانت منافسة صعبة لمجلتى «المقتطف» و«الهلال»؛ لأنها مع احتفالها بالبحوث العلمية قد انفردت بصوت إسلامى له أهدافه الحبيبة، وجمعت من كبار الكتاب من يعدون فى الصف الأول نباهة ذكر، ووفرة نتاج، ثم جاءت رشوة الباعة، فلاقت المعرفة مصير «النهضة»، ومجلة الفكر غير مجلة السياسة، فالأولى ذات قراء محدودين، فإذا وجدت مع ذلك حربا ماكرة، فمصيرها معلوم!

ولكن كلية أصول الدين قد أنشئت فى هذا العهد، ورأى الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى أن ينتفع

(١) فى عالم المكفوفين، للدكتور الشرباصى ٢/١٤٧.

طلاب الكلية بحامل الدكتوراه فى الفلسفة، فعين أستاذا للأخلاق والفلسفة بالكلية، واشترك فى وضع المناهج للطلاب بالكليات والمعاهد الأزهرية مع صفوة من خيرة القوم، وأخذت مؤلفاته الكثيرة تنهمر انهمار الغيث، فأسدى فضلا، وكشف عن جوهر نفيس.

اتجه الدكتور فى محاضراته إلى درس الفلسفة الشرقية، والفلسفة الإغريقية، وكانت كتب الفلسفة بكلية الآداب تنكر كل أثر للفلسفة الشرقية فيما تلاها من الفلسفات، تبعا لما قرره جمهرة أساتذة الغرب فى هذا المجال، ثم أذاع الدكتور طه حسين كتابه «قادة الفكر»؛ فأيد هذه الفكرة بأقصى ما يملك من بيان، وكتب الدكتور أحمد أمين قصة الفلسفة اليونانية فظاهر هذا الرأى وأيده، وفى طلاب كلية أصول الدين من تلاميذ الأستاذ الدكتور غلاب من قرأوا كتب الأساتذة يوسف كرم وطه حسين وأحمد أمين، فعرفوا ما قالوه، واستمعوا إلى أستاذهم فوجدوا الرأى المخالف، فحسبوه يسترضى عواطفهم الشرقية حمية وحماسة لا عن بحث وتحقيق.

وتجرأ طالب متسرع فقال للدكتور غلاب: ولِمَ لمْ تنشر ردك

على مخالفيك فى صحيفة علمية، ليتسع مجال النقاش خارج الكلية؟ واستمع الدكتور إلى الطالب مفكرا، وهنا صح لديه أن ينشر خلاصة دروسه فى مقالات متتالية بمجلة الرسالة استمرت عاما كاملا، ثم جمعها فى جزءين ونشرها مطبوعة، فأحدثت دويا صاخبا بين أهل العلم، وهكذا وفق الله طالب الكلية لاستدراج أستاذه إلى النشر فى فضاء فسيح، فامتد بفكرته إلى المحيط العربى جميعه، بعد أن انكمشت فى جدران ضيقة الرحاب.

وقد ذكر الدكتور محمد غلاب فى مقدمة كتاب «الفلسفة الشرقية» أنه سيحاول دراسة النظر الإنسانى، وما مر به من تطورات قبل أن تطلق عليه كلمة الفلسفة؛ لأن التفكير الشرقى القديم لا يتفق على تسميته تفكيراً فلسفياً كثيرٌ من باحثى الغرب؛ لأنه فى رأيهم يستمد آراءه من التعاليم الدينية! وهى حجة داحضة؛ لأن أصحاب هذا الرأى لم ينكروا إطلاق الفلسفة على ما أنتجه مفكرو العصور الوسطى، الذين يستمدون تعاليمهم من المسيحية، فكيف ينكرون ذلك بالنسبة إلى الشرق وحده؟

وقد قرر أرسطو أن الفلسفة لم تُعرف في تاريخ العقل البشرى إلا فى المستعمرة اليونانية «أيونيا» وقد أسسها قوم إغريقيون، فالفلسفة إغريقية الأصل والعنصر، وهى لا تصعد فى رأيه إلى ما وراء القرن السادس، فأصبح كلام أرسطو موضع قبول الكثيرين، وقد أكده «بارتلمى سانت» فى مقدمة ترجمته لكتاب «الكون والفساد» لأرسطو، وهو ما نقله إلى العربية الأستاذ أحمد لطفى السيد، فكان قوله موضع يقين الدكتور طه حسين ومن تلاه، يقول الدكتور غلاب فى المقدمة: «ولهذا الرأى مقلدون، وأذناب مقلدين فى مصر فى كل فكرة تطعن على الشرق»، وكتب فى الهامش ما يدل على أن المقلد طه حسين، وذنب المقلد أحمد أمين، والتفرقة بين الرجلين لا معنى لها، إذ هما يندرجان فى اتجاه واحد، وقد قرأ أحمد أمين ما قرأ طه حسين، وألف فى الفلسفة قبل أن يؤلف فيها!

هذا ما قاله أرسطو وتابعوه، وتابعو التابعين، أما الدكتور غلاب فقد تتبع منشأ هذه الفكرة منذ قالها أرسطو، ثم ذكر الرأى المقابل الذى سجله «ديوجين لاإرس» فى كتابه «حياة الفلاسفة» وقد عاش فى القرن الثالث قبل ميلاد المسيح،

وألف كتابه الذى اعترف فيه بفلسفة المصريين والفرس فى العصور الغابرة، وبسبقهم الغرب فى النظر العقلى بما ورد عنهم من آثار، ومن أقوى آراء الدكتور غلاب أن الباحثين الأثريين عثروا على كلمات العدل والفضيلة والنفس والحياة الأخرى فى الشرق، قبل تاريخ وجودها فى الغرب بقرون لا يعرف مداها، وأن علماء الرياضة قد فرغوا من تقرير أن بناء الأهرام قام على وضع هندسى تسبقه فلسفة رياضية مؤكدة، وأن كثيرا من النظريات الإغريقية تتوافر فيها جميع شرائط العقلية الشرقية وخواصها.. وتلك أدلة جديرة بالاهتمام.

وكتاب الدكتور أقوى ما كتب فى موضوعه، إن لم يكن أقوى كتبه جميعا؛ حيث بدأه بمقدمة اشتملت على مناهج البحث فى العصر الحديث، وعلى ما يجب أن يسلكه الباحث فى استعراض المذاهب الفلسفية، مراعيا خطوات البحث العلمى فى ترتيب الحوادث وفق القانون المنطقى.

أما ثقافات الأمم الشرقية فقد وجدت مكانها المبسوط، حين تحدث الدكتور غلاب بإفاضة عن الفلسفات المصرية والهندية والفارسية، والصينية والكلدانية والعبرانية، وكان

وفيًّا كل الوفاء لمصر، وفاء علميا، لا وفاء عاطفيا، حين أشبع الحديث عن الحياة العقلية في مصر، منذ نشأتها فى عصر ما قبل التاريخ، ثم فى عصور منفيس ومدينة الشمس وطيبة، وأفاض فى التطورات التى تعاقبت لدى المصريين حول مسائل الألوهية والنفس، والبعث والسؤال والميزان والثواب والعقاب، هذا غير ما اتجهوا إليه فى تأصيل قواعد للأخلاق والآداب، وعلى طريقته فى الحديث عن مصر تحدث عن فلسفة الهند والفرس والصين.

وقد وجد من الباحثين من نهج نهج الأستاذ فى تأريخ الفلسفة الشرقية، وربما اتسع أكثر مما اتسع، ولكن السابق هو الذى مهد وهيأ ورسم الطريق، فكتاب الفلسفة حين ظهر فى أواخر سنة ١٩٣٧م، كان جديدا جديدا، وقد قلت: إن فصولا منه نشرت قبل الطبع بالسنة الخامسة من مجلة الرسالة، فأتيح لها أن تكون واسعة الذيوع، وأن تكون مجال أخذ ورد.

وقد احتفلت الصحف العلمية بظهور هذا الكتاب القيم، فأشادت به مجلة الرسالة، ونقل الأستاذ محمد فريد وجدى مقدمة الكتاب فى جزءين متتاليين من مجلة الأزهر، وقال

تمهيدا لهذه المقدمة[1]:

«شرع حضرة الأستاذ الألمعي الدكتور محمد غلاب، أحد محرري هذه المجلة في طبع بحوثه الفلسفية، وهي تقع في ثلاثة مجلدات، وقد تم طبع المجلد الأول منها، فرأينا أن ننقل المقدمة الفلسفية الممتعة، التي افتتح بها هذه البحوث، فقد أوجزت من تعريف الفلسفة، وفوائد دراستها، واطّراد تقدم الفكر البشري، ما لا يمكن أن يستخلصه المستفيد إلا بعد مطالعات تستغرق سنين طوالا، فنشكر للمؤلف دراساته المدققة، وجهوده الموفقة، راجين له دوام الإنتاج على هذا الأسلوب القيم، والتمحيص الحكيم».

وإذا كان الدكتور قد بدأ نتاجه العلمي بهذا الأثر الكبير، فقد كان براعة استهلال فائقة لما تلاه من البحوث الغزيرة، والبحث الفلسفي شاق يحتاج إلى الصبر الطويل، ويخيل إليَّ أن مخطوطات فلسفية كانت لدى الدكتور قبل أن يكون أستاذا للفلسفة بالكلية، فلما أتيح له أن يغمر طلابه بعلمه الوافر، أخذ يصدر كتبه المتوالية، ومنها كتاب «مشكلة الألوهية»، وكتاب

---

(١) مجلة الأزهر، المجلد التاسع، ص ٢٧٨، سنة ١٣٥٧هـ

«الفلسفة الإسلامية فى المغرب»، وكتاب «المذاهب الفلسفية العظمى فى العصور الحديثة»، وكتاب «الأخلاق النظرية»، وكتاب «حياتنا الاجتماعية ومشكلاتها العظمى»، وكتاب «الأدب الهليني» فى ستة أجزاء، وكتاب «الفكر الأوروبى فى القرن الثامن عشر»، وكتاب «أدباء الرومانتيكية الفرنسية» وكتاب «الأدب المقارن» وغيرها.

وأكثر هذه الكتب كما تحتاج إلى صبر المؤلف فى الإعداد، تحتاج إلى جلد القارئ فى الاستيعاب، وقد تهيبت بعضها، فوقفت على شاطئه، دون أن أضع قدمى فى الماء، لأن استيعابه يحتاج إلى دراسة مؤهلة، لا أرانى وفقت لها من قبل، ولكن غيرى قد قرأ وهضم واستفاد، وفى ذلك عزاء أى عزاء لذوى الجهد المرير.. وليست بعض هذه الآثار هى التى استغلقت علىَّ؛ لأنى حين تصفحت كتاب «مشكلة الألوهية»، وقد نشره بمجلة الأزهر مفرقا قبل أن يجمع، حاولت أن أنتقل منه إلى كتاب «الله» للأستاذ العقاد فوجدته أعتى وأصلب؛ لأن العقاد يفترض فى قارئ كتابه أنه ملم بأصول كثيرة مما يتحدث عنه، فيفاجئه بالحكم على آراء لم تبسط على وجه مريح، أما

الدكتور غلاب فلا يناقش رأيا قبل أن يوضحه على وجه كاشف.

وفيما ذكرت من مؤلفات الدكتور ما يتصل بالأدب وتاريخه مثل كتاب «أدباء الرومانتيكية الفرنسية»، ومثل كتاب «الأدب المقارن»، وكتاب «الأدب الهليني»، والحق أن النزعة الأدبية قد تأصلت فى نفس الدكتور غلاب، وهو طالب بالأزهر ثم بالجامعة المصرية القديمة، إذ كان ينشر بالمجلات الأسبوعية خواطر أدبية أشار إلى بعضها الدكتور زكى مبارك فى كتاب «مدامع العشاق»، كما أنه نشر مترجمات أدبية لبعض القصص الأوروبية الشهيرة بمجلات السياسة الأسبوعية والرسالة والرواية.

وإن كنت وقفت طويلا عند قصة تحت عنوان «يوميات جينيفييف»[1] نشرها فى ثلاثة أعداد من الرسالة، لأنها ليست ذات هدف إنسانى، وإنما هى تصوير لنزوات هابطة، ولعل المترجم أراد أن يقف القارئ على نوازع من التحليل النفسى الدقيق لكوامن الغرائز، فجعل من هذه القصة مثالا.

---

(١) مجلة الرسالة، الأعداد ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ .

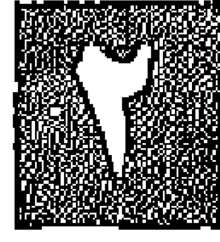
أما كتاب «الأدب الهلينى» فموسوعة تقع فى ستة أجزاء، وقد قال عنه الدكتور وهيب كامل[1]: «إن المؤلف قد اعتمد فى تأليف هذه الموسوعة على كتابين اثنين فى تاريخ الأدب اليونانى»، عينهما باسمى الكتابين واسمي مؤلفيهما، ثم قال:

«ونحن لا نعترض على هذا النحو من التأليف، لأن الكتابين المشار إليهما حجة فى بابهما»! وهذا كلام لا يخلو من نقد صائب، لأن من يتصدى لتأريخ الأدب اليونانى لا يكفى أن يلخص كتابين لم يقرأ سواهما! ولكن ما يشفع للدكتور غلاب فى رأى الدكتور وهيب كامل أن الأستاذ «لويب» الأمريكى قد سلك هذا المسلك فى تأليف كتابين شهيرين أحدهما كتاب «الأدب السكندرى» لمؤلفه العالم الكبير «كويت»، والثانى كتاب «داوس» فى تاريخ الكوميديا اليونانية المتأخرة للعالم الكبير «لاجراند» حين نقلهما نقلا إلى الإنجليزية مسقطا الهوامش فى ترجمته!

وتعقيبا على ذلك أقول: إن الخطأ لا يبرر الخطأ، وكان على الدكتور غلاب أن يثبت فى المقدمة أنه يلخص كتابين لمؤلفين،

(١) مجلة الكاتب، عدد ديسمبر سنة ١٩٥٢.

ويحدد الأسماء، بل كان من الأوفق أن يكتفى بعرض نصوص أدبية إغريقية مع التعليق عليها، وإذا فعل ذلك فلن يعترض عليه معترض، لأن النصوص الأدبية ملك للجميع فى مجال الشرح والتعليق، وقد استدرك عليه الناقد أشياء تدل على تسرعه، وقال فى خاتمة نقده: «إن الكتاب يحتاج إلى ثلاثة أجزاء أخرى لإتمام قصة الأدب اليونانى»، ودعا المؤلف أن يواصل العمل إذا وجد فسحة من الوقت، ليتم هذا العمل الكبير.



للدكتور محمد غلاب بحوث فلسفية كتبها للطلاب فى مذكرات متداولة، وهذه البحوث تلتزم المنهج المقرر فى لائحة الكلية، فمجال الابتكار فيها قليل؛ لأن المؤلف يحاول أن يلم بالمقرر جميعه، ولا يتسع المجال لمناقشة كل رأى على حدة، وإذا أفادت هذه البحوث طالب الكلية، فإن غيره من المثقفين يحتاج إلى غذاء أدسم وأوفر، لذلك كانت بحوث الدكتور خارج نطاق الكلية تدل على شخصيته العلمية أكثر من غيرها، وما جاء من هذه البحوث تقليديا سرديا فهو مما كُتب للعامة، ولا يزال كُتاب الفلسفة يستنزلونها من عليائها إلى مستوى الجمهور، ليضعوا أرضا ممهدة للمسير.

ومن هذه البحوث التقليدية ما كتبه الدكتور غلاب خاصا بعلم الكلام، فهو أشبه بالمذكرات لا بالتحقيقات، وما كتبه عن التصوف الإسلامى؛ إذ جعل تراجم رجال التصوف والمتكلمين بابا للحديث عن مواقفهم، ولا شك أن ترجمة العالم تفيد إذا شملت الحديث عن اتجاهاته الفكرية بإشباع،

أما لو كانت تلخيصا لكتب الطبقات، فإنها لا تشبع حاجة القارئ المتعمق، وإن أشبعت رغبة القارئ المبتدئ.

ولأترك الحديث عن ما يشبه المذكرات المدرسية من آثار الدكتور، إلى ما هو أليق بمستوى فكره الفياض، وأبدأ بحديثه عن «الإسلام والفلسفة»؛ لأن شخصيته العلمية قد برزت فى هذا الحديث، فقد بدأ القول بما اتهم به «رينان» العقل السامي، ورد عليه فى اختصار، وهو حديث كان أسبق من جلّى فيه الأستاذ مصطفى عبدالرازق، فيما كتبه فى دروس الفلسفة الإسلامية، ثم ثنى بالحديث عن أسباب تفلسف العرب، وجعل السبب الأول كتاب الله، فأصاب حين ذكر أن القرآن أول كتاب سماوى، فرض تعلُّم الحكمة على أبنائه فرضا، حين دعاهم إلى النظر فى ملكوت السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وما نزل من السماء من ماء فأحيا به الأرض.

ثم أفاض فى تأكيد هذا السبب بما تجاهله غيره، حين جعل السبب الأول لفلسفة المسلمين هو الترجمة، ولا أنكر أن ترجمة كتب الهند واليونان والفرس بعثت على التفلسف، ولكن التراجمة كانوا نقلة فقط، وحظهم من الفلسفة حظ من

وجد كلاما فنقله، أما من قرأوا الكتب المترجمة، وتأثروا بها ونقدوها فهم الجديرون بالانتساب إلى الفلسفة، وقد أحسن الدكتور حين رد على من ذهبوا إلى أن فلاسفة المسلمين فى الأندلس كانوا أقوى من فلاسفة المسلمين فى الشرق؛ وعلة ذلك عندهم: أن البيئة الطبيعية بالأندلس أخصب منها فى بغداد – وهى نغمة التفريق بين الأجناس التى ابتدعها رينان – فقال الدكتور غلاب: «إن أمثال الكندى والفارابى وابن سينا ليسوا بأقل من ابن رشد، وإذا كان هناك نبوغ فى مؤلفات ابن رشد الأندلسى فمرجعه إلى التقدم الزمنى، وإلى نضوج الفلسفة الإسلامية، واطلاع اللاحق على آثار السابق، فأفاد منها وزاد عليها، وتلك طبيعة البحث على تداول العصور.

وقد عرض الدكتور غلاب إلى ما أفاض فيه فلاسفة المشرق، من نقل عن فلسفة أرسطو ظهرت آثاره فى آراء الكندى والفارابى وابن سينا، من حديث العقل الأول والعقل الثانى إلى العقل العاشر، وما يشبه هذه الخيالات ليبرئ الإسلام منها، ولينقل ما ذكره الغزالى عن تهافت الفلاسفة، ثم أعلن أن الفلسفة الحقيقية لا تصطدم مع حقائق القرآن فى شىء، وأن

كل ما سبق من حديث العقول بعيد عن منطق الإسلام، وقال في صراحة واضحة[1]:

«إن مشاهير فلاسفة الإسلام كالفارابى وابن سينا وابن رشد قد قدسوا بعض النظريات اليونانية الخاطئة، فهووا فى نظر المسلمين هويا أفعم قلوب الأمة الإسلامية بالريب والشكوك فى الفلسفة كلها».

والذين كتبوا فى هذا المجال من أساتذة الأزهر، قد تحدثوا عن هذه الآراء ليبينوا بُعدها عن الإسلام، وإذا كان للإسلام فلسفة، فليست هى التى توافق آراء أرسطو، ولكنها هى التى تنبع من آيات القرآن، وقد ذكرت من قبل أن الإمام الأكبر مصطفى عبدالرازق قد جعل علم الأصول هو المظهر الحق لفلسفة الإسلام، ذكرت ذلك فى حديثى عنه بهذا الكتاب.

ومن أحسن ما كتبه الدكتور غلاب تحت عنوان «الأخلاق الفلسفية»[2]، ما ذكره عن الدين وقوة سلطانه على النفوس، فقد بدأه بحديث الشعوب الوثنية، حين رأت مظاهر الكون

(١) مجلة الأزهر، المجلد السادس، ص ٧٠٥.

(٢) مجلة الأزهر، المجلد الثامن، «أعداد متوالية ابتداء من ص ٢٨٢».

الخارقة من شمس ورعد وبرق ونار، والنافعة من حيوان وطير ونبات، فاعتقدت أنها تمثل المحرك الأول لهذه المظاهر، فاستحقت التقديس والعبادة، وهى على بطلانها الواضح قد أفادت فى نزع الشرور وتخفيف الآثام؛ لأن الاعتقاد بالمحرك الأول قد أوجد الخشية فى نفوس هؤلاء الوثنيين، ولكن الله - عز وجل - لم يشأ أن يدوم هذا الباطل رائنا فوق النفوس؛ فبعث الرسل تترى لإعلان الحقيقة الأبدية، وهى رب الوجود، وبذلك انتقل الناس من الوثنية إلى التوحيد، وإذا كان للدين أثره فى نزع كثير من الشرور، فقد قام خلاف بين علماء أوروبا حول نظرية تأسيس الأخلاق، أيكون ذلك التأسيس على الدين أم يكون منفصلا عنه؟

أما القائلون بقوة الدين فى نزع الشرور، فقد لمسوا الحقيقة الواضحة فى أثر الإيمان فى الكف عن الضرر، والتسامى بالغرائز الهابطة إلى مستوى النقاء والطهر، كما أن ارتقاب الجزاء ثوابا أو عقابا فى الآخرة قد غلّ المؤمنين بقيد خلقى لا ينفك، فكان مصدر سعادة للبشرية، لذلك وجب أن تهتم الحكومات بالتربية الدينية، ليسعد المواطنون فى ظلالها، وأى

قانون لا يستند إلى رقابة السماء فما أسهل عصيانه إذا أمن المجرم على نفسه، ولم ير من يشهد جريمته من الناس، وإذا كنا نقدس القانون، ونجعله كفيلا بصلاح البشرية، فلا بد أن يستشعر الإنسان قوته المتمكنة منه، ولن يكون ذلك إلا في حياطة الدين؛ إذ أنزله الله دستورا لصلاح الناس.

وهذا المنطق قد وُجد من يخالفه، ونشر الدكتور غلاب حجة هؤلاء ملخصة في أمور؛ منها أن الأديان كثيرة متعددة، ونشر أخلاق دين معين يجبر غير معتنقيه على قانون لا يؤمنون به! وهذه سفسطة واهية؛ لأن الأديان السماوية جميعها تتفق على الفضائل وتحارب الرذائل دون نكوص، فإذا نُشرت أخلاق الإسلام في مصر مثلا، فلن يرى المسيحي فيها ما يخالف أخلاق دينه، ومن الحجج أن بعض الحكومات لا دينية، فكيف نجبرها على أخلاق الدين، وقد فصلته عن السياسة؟ والرد على ذلك أن الشرائع السياسية يمكن أن تتبدل، أما قوانين الأخلاق فثابتة، والمسيحي في حكومة لا دينية كفرنسا يؤمن بأخلاق الإنجيل ويحتذيها، وإن نادت الدولة بفصل السياسة عن الدين، على أننا في الإسلام لا نقر هذا الفصل ونراه خرقا

لشريعة الله! فالمسألة تخص المسلمين.

وقد رأى الفيلسوف (كانت) كبير الفلاسفة العقليين أن فصل الدين عن الأخلاق خطر على الحياتين الاجتماعية والأخلاقية معا! والذين يحاربون انتساب الأخلاق إلى الدين، يريدون أن يتحللوا من الدين، فلا يقعون تحت حدوده إذا ارتكبوا الموبقات، ولكن الإنسان السوى لا يخشى هذه الناحية؛ لأنه بعيد عن أوبئة الانحلال، والمفروض فى المسلم أن يكون من هذا الطراز.

ومتى انتهى الأمر إلى رعاية الأخلاق فى كنف الدين، فمن أقوى وسائل الاجتماع أن يكون صاحب الدين ممتّعاً بضمير حى، وهو ما عبر عنه القرآن بالنفس اللوامة، وقد تحدث الدكتور غلاب عن الضمير وقوة تأثيره فى النفوس، فقسم الضمير إلى نوعين، ضمير نفسى، وضمير أخلاقى، أما الأول: فيقف عند إدراك ما يجيش فى النفوس من انفعالات، وأما الثانى: فهو الحَكم الصادق على ما يأتيه المرء من أفعال، وقد شاء له اطلاعه أن يزحم القارئ بآراء فلاسفة الأخلاق فى أوروبا مطيلا مجيدا، لينتهى إلى أن الأخلاق الإسلامية قد

قامت على رعاية الضمير، والاستماع إلى صوته، وأن المثل الأعلى في الإسلام ذروة يطمح إليها المسلمون، فهم دائمو السعي إلى الوصول إليها، وفيهم من رزق الحظوة فارتقى، ومن قصَّرت به خطاه فتلكأ.

وتابع الدكتور بحثه منتقلا إلى بحوث من علم النفس تتعلق بالغريزة، وبحوث من علم الاجتماع تتعلق بالعادات والعرف والتقاليد، ولكن ذلك كله في نطاق التوجيه الإسلامي، المؤيد بالشواهد والنصوص.

ولقد كان من الخير لأستاذ الفلسفة في جامعة الأزهر ولطلابه وقرائه أن يعالج هذه البحوث بوحى من ثقافته الدينية أولا، وبهدى من اطلاعه على أحدث الآراء الأوروبية في هذا المجال، ليأخذ منها ويدع وفق تعاليم دينه؛ لأن كثيرا من الذين ألفوا في هذه الشئون الدقيقة، قد نقلوا مترجمات أوروبية عن أناس كثرتهم الكاثرة من الماديين، فأحدثوا بلبلة في النفوس، وانتشر ضلالهم على صفحات مجلات تحب أن تنحدر النفوس إلى حضيض الشهوات، ولم يُجْدِ الوعظ المنبرى شيئا في ردع هؤلاء، فكان واجبا على الملتزمين من أساتذة الأخلاق

والفلسفة أن يكشفوا النقاب عن مموهات تَتزيَّا بزى البحث الدقيق، وهي في الواقع لا تعرف طريق البحث الرشيد، وما كتبه الدكتور غلاب يسد كثيرا من الثلمات.

قضى الدكتور غلاب ردَحا فى فرنسا، فقرأ كثيرا مما كُتب عن الإسلام فى الغرب، وعرف طرق التهجم الكاذب على حقائق هذا الدين، وقد شغله عمله الجامعى عن التصدى لهذه الافتراءات، ولكنه أخذ يرصدها، ويسجلها فى أوراقه، ليفرغ إلى معارضتها بعد أن ينتهى من عمله، ولم يكن كقوم سمعوا هذه الأراجيف من أبناء مصر، فاعتقدوا صحتها، وأخذوا يشيعون الكثير منها فى مؤلفاتهم، تزلفا إلى من بيدهم منح الدرجات العلمية هناك.

لذلك كتب الدكتور غلاب عدة بحوث تحت عنوان: «الإسلام كما يراه الأوروبيون»، فأظهر أن قدماءهم كانوا يكذبون على الإسلام، فيلصقون به وبرسوله التهم الفاضحة دون تمحيص، ومنهم من حاول أن يثبت أن الإسلام دين التثليث، وقد أخذ هذا التعدد عن المسيحية، مع أن الإسلام دين التوحيد، وما جاء إلا ليحارب أعداءه، وإذا كان التثليث

مصدر تهمة يصم بها الإسلام فلماذا اعتنقه هذا المستشرق وآمن به؟!

وكم كان جميلا من الباحث الدكتور غلاب أن يأتي بالفرية الاستشراقية، ثم يرد عليها بما كتب مستشرق آخر في موضوعها، لا لأنه عاجز عن الإفاضة في تفنيدها، بل ليثبت للقراء أن الحق لا يعدم النصير، فقد أثبت ما قال «رينان» عن محاربة الإسلام للعلم، ورد عليه بما قال الأستاذ «كارادى فو»، كما نقل ما قاله الأخير عن الوحدانية وهو حق في أكثره، ولكن غيوما تراكمت على بعض نواحيه، فأزاحها بالدليل المقنع، وقد قال عن «كارادى فو»[1]:

«بعد أن انتهى الأستاذ من بسط إلهية القرآن، عرض لما فيه من أخلاق فلسفية، فكانت إبانته إياها بمثابة رد قاطع على أولئك الجاهلين، الذين زعموا أن القرآن ليس فيه إلا نوع من الأخلاق العملية الساذجة المألوفة عند الشرقيين، من مثل الأمر بالصدق والأمانة والنهى عن الكذب والخيانة، فأثبت لهم أنه قد احتوى بين آياته على أخلاق فلسفية، هي في أسمى درجات

(١) مجلة الأزهر، المجلد العاشر، ص ٢٦٢.

النظر، ونقل من أقواله الشافية ما يؤكد هذا الاتجاه.

وإذا كان الباحث قد ذكر أنماطا من الآراء المنحرفة لهؤلاء، فقد وجد من الإنصاف أن يذكر أنماطا تمثل الاتجاه المستقيم، فكتب مقالا عن الأستاذ «إميل دير مانجيم» يثبت فيه نواحي من السمو الرفيع للإسلام ونبيه الكريم، وقال: «إنه وفق إلى الكثير من الحقائق، وإن كانت له هو الآخر هفوات سأعرض لها في حينها»، ثم نقل نصوصا صحيحة من تفكيره المعتدل تحت عنوان[1]: (محمد إنسانا)، و(محمد حكيما) و(محمد نبيا) وهي نصوص يقبلها المسلم بارتياح.

هذا وقد أطال الدكتور الوقوف عند آراء الأستاذ «بول كازانوفا» لأنه قد انتدب أستاذا بالجامعة المصرية حينا من الدهر، فذاعت آراؤه بين كثير من الطلاب، وقد ألف كتاب «محمد ونهاية العالم»، ليثبت أن القرآن قد أضيف له بعد وفاة النبي ما دعت الحاجة إليه في نظرَى أبي بكر وعمر، مثل الآيات التي صرحت بأن الساعة من الأمور التي استأثر الله بعلمها، وتُهمة إضافة شيء للقرآن فرية يعرف هذا المستشرق كذبها،

(١) مجلة الأزهر، المجلد العاشر، ص ٣٧٩.

ولكنه علم أن الأناجيل قد حُرفت وزيد عليها، فأراد أن يجعل القرآن كالإنجيل، ومضى يسوق مفتريات لا تثبت لأدنى تحقيق، وقد ساعد عليها جهله بالأسلوب العربى؛ لأنه لا يعرف اللغة إلا عن طريق المعاجم، كما يجهل الفرق بين الحقيقة والمجاز فى الأسلوب البيانى، وإذ ذاك يتورط فى الحكم الفاسد؛ لأنه يضل معاني الكلمات، وهذا ما كشف عنه الأستاذ غلاب فى تعقيباته الشافية.

وجاء بعد كازانوفا أكبر حاقد من المستشرقين وهو الأب «لامانس» فجعل يجمع أشباه هذه المفتريات، فإذا لم يجد اختلق وبالغ، حتى سقطت سمعته العلمية عند أصدقائه من ذوى نحلته، والذين أشادوا به لم يستطيعوا أن يشفوا صدورهم من الحقد، فمضوا على جمرهم محترقين، وقد حدد الدكتور غلاب موقف هذا الحاقد وكشف عن خطئه المريب.

هذا نمط من الشبهات التى تصدى لها الدكتور غلاب فى بحثه عن «الإسلام كما يراه الأوروبيون»، ولعلى وقد رسمت خطوطا واضحة عن اتجاهه الفكرى، لا أعفيه من نقد هادئ أسجله عليه؛ إذ كان يضيق كل الضيق بما يوجه إلى مقالاته

وكتبه من اعتراضات هادفة، قد يكون قائلها مخالفا وجهة نظره، ولكنه دارس، له حق المؤاخذة والتعقيب.

وأذكر بهذا الصدد أن الأستاذ «دريني خشبة» قد نقد بعض مترجماته نقدا صائبا مسببا، فضاق الدكتور غلاب، والحق أن الكتاب المنقود ذو أخطاء كتبها المؤلف، وغفل عنها المترجم فلم يعقب عليها، فاستدرك الأستاذ دريني ما كان، وظل الدكتور غلاب ضائقا بالنقد حتى فرج عن نفسه بمقال كتبه تحت عنوان: «النقد عندنا وعندهم»[1]، بدأه بالضيق النافر من ركود الحركة النقدية الصحيحة، ثم اشترط في الناقد شروطا جمعها في قوله: «إن هذه المهمة الشاقة لا تتيسر إلا لمن توافرت لديه شروط خمسة، هي: غزارة الثقافة، واتزان المنطق، والقدرة على اكتناه النفوس، والدراية الاجتماعية، والنزاهة الخلقية»، وأفاض في مثل هذه المعاني.

لقد كان الدكتور غلاب باحثا مثابرا نشيطا، ومؤلفاته الكثيرة شاهدة فضل، ودليل مثابرة وإخلاص.. وهي بعد تسير في عدة اتجاهات..

د. رجب البيومي

(١) مجلة الثقافة، العدد ٦٣١، ٢٩/١/١٩٥١م.

١

بسط الإسلام في مبدأ شبابه سلطانه على قارتى آسيا وأفريقيا وجزء عظيم من قارة أوروبا من الناحيتين: النظرية والعملية ثم اخترق صليل صولته أسماع الشعوب التى لم تدن به، ودوى فى رءوسها صوت جلاله القوى، فكان من الطبيعي أن يروع الساسة، ويبلبل أفكار العلماء والباحثين من خصومه فى تلك الشعوب التى لم تكن تطمئن على مصيرها بإزاء هذا التيار الجارف، وكان من الطبيعى أيضا أن يدفع الغيظ المتعصبين من أولئك العلماء كما دفعت غريزة حب الاستطلاع المخلصين منهم إلى الاشتغال بنصوص هذا الدين ودراستها للوقوف على ما فيها من فكر وآراء نظرية، وطقوس وتقاليد عملية. وقد كان ذلك بالفعل، فنظر أولئك وهؤلاء فى نصوص القرآن والحديث والسيرة النبوية نظرة ادعوا أنها نظرة نقد حر، وتمحيص برىء، وأنهم لم يتخذوا خلالها كنبراس هاد إلا الحقيقة وحدها، وإن كان ذلك لا يتفق مع الواقع

إلا فى بعض الأحوال، بل إننا نستطيع أن نجزم ـ استنادا إلى ما بين أيدينا من مؤلفات أولئك العلماء ـ بأن الدراسة الجدية لنصوص الإسلام وتعاليمه، والبحث الدقيق النزيه فى أسراره ومزاياه، لم يبدآ إلا منذ القرن التاسع عشر حين انتشرت الثقافة الشرقية فى أوروبا وأخذ المستشرقون يجدون فى فتح مغالق الشرق وكشف ما فيه من كنوز بعد حملة (نابليون) التى فاقت أهميتها العلمية أهميتها السياسية.

أما قبل ذلك العهد، فقد كانت مؤلفات الغربيين عن الإسلام مدعاة للسخرية والاستهزاء أكثر منها مبعثا للجدل والنقاش؛ لأن أكثرها كان مفعما بالجهل المطبق، والسطحية والتعصب، وهذه الأمور من شأنها أن تسقط القيمة العلمية التى هى الدعامة المتينة لجميع المؤلفات على اختلاف أنواعها، وتباين موضوعاتها وغاياتها.. ونحن حين نقرر هذا لا نتجنى على أولئك المؤلفين، ولكننا نذكر حقيقة واقعة مؤيدة بالنصوص التى فى كتبهم وفى كتب الباحثين المحدثين الأكثر نزاهة وعلما من بين الأوروبيين أنفسهم، وإليك شيئا من هذه الحقائق:

١- قال الأستاذ «دير منجم»: «حينما اشتعلت الحرب بين

الإسلام والمسيحية ودامت عدة قرون، اشتد النفور بين الفريقين، وأساء كل منهما فهم الآخر، ولكن يجب الاعتراف بأن إساءة الفهم كانت من جانب الغربيين أكثر مما كانت من جانب الشرقيين. وفى الواقع أنه على أثر تلك المعارك العقلية العنيفة التى أرهق فيها الجدليون البيزانتيون الإسلام بمساوئ واحتقارات دون أن يتعبوا أنفسهم فى دراسته، هب الكتاب والشعراء المرتزقة من الغربيين وأخذوا يهاجمون العرب، فلم تكن مهاجماتهم إياهم إلا تهما باطلة، بل متناقضة»[1].

٢- قال الأستاذ «كارادى فو»: «إن محمدا ظل وقتا طويلا معروفا فى الغرب معرفة سيئة، فلم توجد خرافة ولا فظاظة إلا نسبوها إليه»[2].

ولما كنا قد اعتزمنا أن نقصر عنايتنا فى هذه البحوث على الكتب التى تستحق أن يطلق عليها اسم الكتب العلمية، مثبتين ما احتوته من حقائق معلية لشأن الإسلام، هادمين ما اشتملت عليه من أباطيل وأخطاء زل فيها المؤلفون عن جهل طفيف، أو شطط فى

(١) انظر صفحة ١٣٥ من كتاب «حياة محمد» لأميل دير منجم طبعة باريس سنة ١٩٢٩.

(٢) انظر صفحة ٢٠ من كتاب «المحمدية» للبارون كارادى فو طبعة باريس سنة ١٨٩٧.

الفهم، أو ابتعاد عن المنطق السليم، مبرهنين على رأينا بأنصع الأدلة وأسطع البراهين. ولما كانت هذه الخطة التى اعتزمناها تستتبع الإغضاء عن الأكثرية الغالبة من المؤلفات التى كتبت قبل القرن التاسع عشر، فقد آثرنا أن نكتفى فى جانب هذه المؤلفات القديمة بإشارة عاجلة إلى كل واحد منها. وإليك هذه الإشارات.

(أ) تحدثنا قصيدة «رولان» وهى أهم منتجات العصور الوسطى الغربية على الإطلاق، أن فرسان شارلمانى قد أسقطوا الأصنام الإسلامية، وأن العرب يعبدون ثالوثا مؤلفا من: محمد و«أبولون» و «تيرفاجان».

ولا أحسب أن التاريخ قد عرف سخفا أحط من هذا السخف، أو ضلالا أسقط من هذا الضلال، وأنا لا أستطيع أن أعزو هذه الأضلولة الوضيعة إلى الجهل وحده بل إلى سوء النية أيضا؛ لأن انحصار غاية الإسلام المثلى فى التوحيد، وإلحاح القرآن على إثبات انفراد الله بالعبادة الحقة، ومحاربة الوثنية، وإزالة النبى إياها من فوق جدران الكعبة، كل ذلك يوضح رأى الإسلام فى التوحيد، بل إن كلمة الإسلام التى لا يثبت إلا بها، وهى كلمة (لا إله إلا الله) هى نفسها حملة قاسية على الأوثان والوثنية.

أما الثالوث الذى زعم مؤلف القصيدة أن المسلمين يعبدونه فهو لايخرج عن كونه من باب «رمتنى بدائها وانسلت» لأن المسلمين موحدون توحيدا خالصا نقيا لا يعرف المواربة ولا الهوادة، ولا التعبيرات المبهمة ذوات المعانى المختلفة والمرامى المتباينة، وإنما غيرهم هو الذى يرمى بمثل هذه التهمة.

على أنى لست أدرى كيف يعد مؤلف هذه القصيدة الثالوث مغمزا يطعن به على الإسلام مع أنه ارتضاه فى المسيحية ولم يعترض عليه، ولكن أنصار هذا المؤلف المتعصب قد أجابوا عنه بأن ثالوث المسيحية يرجع إلى واحد، فى حين أن ثالوث غيرهم مؤلف من كائنات متعددة. وهنا يهوى المدافع فى ظلام الجمل الغامضة المعقدة التى خلا منها التوحيد الإسلامى خلوا تاما.

(ب) يشاهد القارئ فى قصيدة «أورشليم» وصفا دقيقا لتمثال زعم مؤلفها أنه صنع للنبى من الذهب والفضة الخالصين، وأن قاعدته هى تمثال فيل أصعد فوقه كأنه يمثل النبى وهو راكب.

وقد وصلت الجرأة على الحق والتجنى على التاريخ بهذا الشاعر إلى حد أسقطه من صفوف المؤرخين الذين يسجلون الحوادث على حقيقتها إسقاطا تاما؛ لأن أولئك الغربيين المحدثين أنفسهم اقتنعوا

بعد الدرس والبحث أن مهمة الإسلام الأولى كانت القضاء على الوثنية ومحو آثارها، والحكم بالإعدام على جميع ما يمت إليها بصلة من قريب أو من بعيد، بل إن المحدثين يأخذون على المسلمين مغالاتهم فى هذا التشديد ويقولون: إن المدنية الحاضرة تتطلب منهم الأخذ بنصيب من الحفر والتصوير. وقد رد المسلمون على هذه الملاحظة بردود مختلفة ليس هذا المجال موضع ذكرها، ولكن الذى لا ريب فيه هو أن دعوى هذا الشاعر القديم سخيفة لا يؤيدها الحق، ولا يعززها المنطق، ولا يسندها التاريخ.

(ج) هناك رواية سخيفة ألفت بعد الانتهاء من الحروب الصليبية زعم فيها مؤلفها أن الإسلام يبيح زواج المرأة الواحدة من عدة رجال معا. وليست هذه الأكذوبة الساقطة فى حاجة إلى الرد لأن ضآلتها تهوى بها عن أدنى درجات الجدل والنقاش.

هذا نموذج من المؤلفات القديمة التى تناولت الإسلام بالطعن والتجريح المؤسسين على المعلومات الخاطئة أو على الأهواء والأغراض[1] . ولم نشأ أن نفيض فى سرد هذه الآراء الباطلة، أو

(١) اكتفينا من كتب القرون الوسطى بما تقدم، ومن أراد الاستزادة فعليه بالقوائم التى وردت فى كتب المحدثين حاوية أسماء تلك المؤلفات القديمة الخاطئة، كالقائمة التى أوردها العالم الكبير الكونت دى كاسترى فى كتابه «الإسلام».

أن نذكر عددا من الكتب أكثر مما ذكرنا؛ لأننا ألفينا العلماء المحدثين قد أنزلوها المنزلة الجديرة بها من الإغفال والإهمال، فرأينا أن مهاجمتها غير مجدية. ولهذا آثرنا أن نتخطاها إلى الكتب الجدية التي يصح أن يطلق عليها اسم الكتب العلمية، ليكون البحث قيما مفيدا.

ليست العصور الوسطى وحدها هي المشتملة على هذه المؤلفات الخاطئة، بل إن عصري الانتقال والنهضة، والقرنين: السابع عشر والثامن عشر قد احتوت من هذه الأخطاء العلمية والتاريخية على مقدار غير يسير. فكما سقط كتاب القرون الوسطى وشعراؤها في الأخطاء المرعبة التي أبنّا لك طرفا منها آنفا، كذلك هوى كثير من علماء هذه القرون الأربعة الأخيرة. فمثلا: «باسكال» و«مالبرانش» في القرن السابع عشر، و«مونتسكيو» و «فولتير» في القرن الثامن عشر، و«رينان» في القرن التاسع عشر، و«كازانوفا» و «دير منجم» في القرن العشرين، كل هؤلاء قد اقترفوا أخطاء جسيمة نحو الإسلام، وهووا في مخالفات جدية للعلم والتاريخ، كما أن لهم ولغيرهم من المؤلفين الآخرين أمثال كارادي فو، وديزيريه بلانشيه، وكليمان هوار وأضرابهم، عن

الإسلام آراء قيمة جديرة بالاحترام.

وسنعرض لأهم كتب أولئك العلماء فى شىء من البسط فى الفصول المقبلة، ولكننا نكتفى اليوم بأن نشير إلى أن «فولتير» فى هجومه على الإسلام كان قد أراد فيما يظهر أن يتخذه رمزا لجميع الديانات؛ لأنه كان يطعن عليها كلها من غير استثناء. ولكنه لما خشى اضطهاد الكنيسة والحكومة، اتخذ نبى المسلمين ستارا يحتمى وراءه لمهاجمة جميع مؤسسى الأديان. وقد وصل فى النفاق إلى حد أن أهدى هذا الكتاب إلى البابا لينال رضاه، أو ليتقى غضبه على أقل تقدير.

ومما اعتمد عليه العلماء فى الحكم بأن الإسلام فى كتاب «فولتير» صورة رمزية، هو أن آراءه فى كتبه الأخرى عن الإسلام تختلف عن رأيه فى هذا الكتاب، وأن طريقته فى كتابته كلها كانت دائماً تشتمل على هذا النوع من المداورة والمراوغة، اللهم إلا أن يكون «فولتير» قد قصد بهذه الصورة الضالة التى صور بها نبى المسلمين فى روايته أن يرضى البابا، وضحى فى سبيل ذلك بالنزاهة والحق والكرامة، ولكنه لم يفز منه بهذا الرضا المنشود، فخسر الصفقة وثمنها.

أما «رينان» فقد تناول الإسلام فى كثير من مؤلفاته بالقدح، ولاسيما فى كتابه «الإسلام والعلم» الذى طعن فيه على العرب والإسلام طعونا دفعت المغفور له السيد جمال الدين الأفغانى إلى الرد عليه بما أفحمه وألزمه الحجة والاعتراف بضعف كثير من المصادر التى استقى منها معلوماته. وسنمر فى الكلمات الآتية بهذا كله فى شىء من التفصيل، معقبين على الباطل منه بما يدحضه دحضا تاماً، مثبتين الحق مع الثناء على نزاهة أصحابه ورجاحة عقلياتهم، ولكننا رأينا أن نبدأ هذه الفصول بذكر الآراء الصحيحة التى هى إلى جانب الإسلام والحق، فإذا انتهينا منها، مررنا بالآراء الأخرى المخالفة مرور الناقد بالحجة والبرهان، لا بتأثير العاطفة، أو بدافع التعصب والهوى.

أما اليوم فسنكتفي بأن نختم هذه الكلمة ببعض عبارات موجزة قيمة شهد فيها أصحابها للنبى ﷺ بشىء مما كان عليه من العظمة والجلال، وهاك هذه العبارات:

١- قال الأستاذ «كازانوفا»: «إن كل تاريخ النبى العربى يدل على أن خلقه عملى جدى محمود، إنه حتى حين اعترف الجميع

بسلطانه المطلق عرف كيف يستمع آراء الغير ويعترف بهفواته ويصلحها. إن محمداً وأصحابه قد أوضحوا بعناية تامة الفرق بين آرائه الخاصة وإدراكاته للحياة الواقعية من جهة، وبين تعاليم السماء من جهة أخرى، وقد ظلت هذه الفروق خالدة فى الإسلام الذى لا يخلط بين القرآن والسنة، بل إنه فى السنة نفسها يفرق بين ما له صفة الموحى به، وما هو شخصى لمحمد [1]».

٢- قال الأستاذ «كارادى فو»: «إن محمداً أتم طفولته فى الهدوء، ولما بلغ سن الشباب اشتهر باسم الشاب الذكى الوديع المحمود... وقد عاش هادئا فى سلام حتى بلغ الأربعين من عمره، وكان بشوشا تقيا لطيف المعاشرة [2]».

٣- وقال أيضاً: «إن محمداً كان هو النبى والملهم والمؤسس، ولم يستطع أحد أن ينازعه المكانة العليا، ومع ذلك فلم ينظر إلى نفسه كرجل من عنصر آخر، أو من طبقة أخرى غير طبقات بقية المسلمين، إن شعور المساواة والإخاء الذى أسسه بين أعضاء الجمعية الإسلامية كان يطبق

---

(١) انظر صفحة ٥ من الجزء الأول من كتاب «محمد ونهاية العالم» للأستاذ كازانوفا. وليعلم القارئ أن هذا الكتاب كما اشتمل على آراء صحيحة، احتوى على أخرى فاسدة سنعرض لنقدها فيما بعد.

(٢) انظر صفحتى ٢٢ و ٢٣ من كتاب «المحمدية» للأستاذ كارادى فو.

تطبيقاً عملياً حتى على النبى نفسه»[1].

٤- قال «ديزبريه بلانشيه»: «إن النبى محمداً يعد من أبرز وأشهر رجال التاريخ، فقد قام بثلاثة أعمال عظيمة دفعة واحدة، وهى: أنه أحيا شعباً، وأنشأ إمبراطورية، وأسس دينا»[2]

٥- قال «لامارتين»: «إن محمداً أقل من إله، وأعظم من إنسان عادى، أى إنه نبى».

٦- قال الأستاذ على [3] أسير الدين: «صريح ذلك الراعى، قوى العزم، نقى القلب، طاهر النفس، دعاه قومه بالأمين، وحقا إنه لأمين، أحبه جده وأوصى بذلك الصبى الجميل خيراً، فهو خير ثمرة لخير شجرة نبتت بين ربوع قريش، وقريش هذه من أعظم قبائل العرب فى ذلك الحين».

٧- قال الأستاذ «جارسان دى تاسى»: «إن محمداً ولد فى حضن الوثنية، ولكنه منذ نعومة أظفاره أظهر بعبقرية هائلة انزعاجا عظيماً من الرذيلة، وحبا حاداً للفضيلة، وإخلاصا ونية حسنة غير عاديين إلى درجة أن أطلق عليه مواطنوه فى ذلك العهد اسم الأمين»[4].

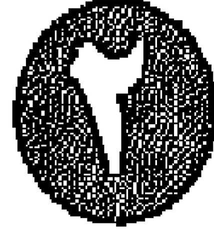
---

(١) انظر صفحة ٦٣ من الكتاب المذكور.

(٢) انظر كتاب «دراسات فى التاريخ الدينى».

(٣) هو شاب استرالى اعتنق الإسلام وقد ألف كتابا قيما عن الدين الإسلامى وسيرة النبى ﷺ.

(٤) انظر صفحة ٦ من مقدمة كتاب «الإسلام» لجارسان دى تاسى.



أسلفنا فيما سبق أن الأوروبيين قد اختلفوا فى فهمهم للإسلام وحكمهم عليه اختلافات شتى، وأن القدماء منهم قد أسسوا آراءهم فيه على الجهل أو على التعصب وسوء النية، وأن المحدثين كانوا أحسن حالاً من القدماء، فدرسوا وبحثوا ثم بنوا أحكامهم على هذا الدرس وذلك البحث. وقلنا: إن آراء أولئك المحدثين - على ما فيها من حيطة ودقة - لم تخل من مآخذ وهفوات. وقد أتينا فى الكلمة الأولى من هذه السلسلة بأمثلة من سخافات أفكار القدماء، واستقامة آراء المحدثين، ووعدنا القراء بأننا سنغضى عن الأولى، لخفة قيمتها فى ميزان العلم الصحيح، وسنعنى بالثانية عناية الباحث بمواجهة آراء العلماء، لإيضاح غامضها، والإشادة بما فيها من حق وخير، وإزهاق ما فيها من باطل وشر، بأسطع الأدلة وأنصع البراهين، وقد اخترنا أن نبدأ هذه البحوث بعرض آراء الأستاذ «البارون كارادى فو»

وهو من كبار المستشرقين الفرنسيين الذين سطعت أسماؤهم فى أوائل هذا القرن:

تلألأ نجم هذا الأستاذ بين المستشرقين بسبب مؤلفاته فى الفلسفة الإسلامية التى كانت ولا تزال ذات شأن عظيم فى البيئات العلمية والتى نذكر أهمها فيما يلى:

(١) «مفكرو الإسلام»، وهو كتاب ضخم فى خمسة مجلدات تناول فيه مؤلفه الحركة العقلية الإسلامية فى بسط وإسهاب.

(٢) «ابن سينا».

(٣) «الغزالى»، وهما كتابان عظيمان درس فيهما المؤلف حياة هذين المفكرين الجليلين وفلسفتيهما دراسة دقيقة قيمة، بعد أن ألم بعصريهما إلماما وافيا بالغرض المراد.

(٤) «المحمدية» وقد عرض فيه لكثير من الفرق الإسلامية عرضا جديراً بالعناية والاحترام.

وهذا عدا بحوثه التى كتبها عن عظماء الإسلام فى دائرة المعارف الإسلامية الفرنسية، والكتب العربية التى ترجمها إلى الفرنسية، مثل كتاب «التنبيه والإشراف» للمسعودى وغير ذلك.

وإليك أهم آراء هذا المستشرق بعد أن نشير إلى دعوى «رينان» الباطلة التى ستكون آراء الأستاذ «كارادى فو» بمثابة دحض لها:

الإسلام والفلسفة:

ذاعت بين الأوروبيين فى القرن الماضى فكرة خطرة على الحقيقة والتاريخ، مؤداها: أن الإسلام كان حرباً ضروسا على حرية الفكر، وأنه كبت جميع الحركات العلمية، وحارب العلم والفلسفة، وحظر على معتنقيه التأمل والنظر، وأن العرب مدينون بالعناصر الأولى من أفكارهم للإغريق؛ إذ إنه لم يظهر لديهم قبل عصر الترجمة شيء من التفكير.

وكان «إرنست رينان» أبرز دعاة هذه الفكرة الخاطئة، فأفسح لها أمكنة واسعة فى عدة كتب من مؤلفاته، وأفرد لها سفرا خاصا عنوانه: «الإسلام والعلم» فانتشرت بسبب هذه الدعاية فى جميع الأوساط الأوربية المثقفة على ما بها من عداء للحق وافتئات على التاريخ. وقد نشرت هذه الفكرة فى مصر بدون رد عليها منذ نحو ستة عشر عاماً، فكان ذلك مثارا لجدل شغل الصحف أكثر من ثلاثة أسابيع، وها نحن أولاء اليوم نعود إليها، ولكن الفرق بيننا وبين غيرنا هو أننا سندحضها بأدلة علمية قاطعة، مستقاة من أصدق النظريات الفلسفية العصرية المتمشية مع المنطق المستقيم وهاك دحض هذه الفكرة الخاطئة.

نحب أن نبدأ هدم هذه الفكرة بذكر رأى «البارون كارادى

فو» باعتباره باحثاً فنياً خصص نفسه للفلسفة الإسلامية ودرسها دراسة عميقة تسمح له بأن يرى منها ما لم يره الأستاذ «رينان»، وتبيح له أن يحكم عليها الحكم الذى له قيمته فى نظر الباحثين.

على أن لهذا الأستاذ أيضاً هفوات لا نقره عليها، وسنلفت إليها نظر القارئ، مشيرين إلى مخالفتها للحقيقة، قال الأستاذ «كارادى فو»: «ليس القرآن كتابا فلسفيا، وليس محمد فيلسوفا بالمعنى الفنى لهذه الكلمة، ولكنه، كنبى، التقى أثناء تأديته مهمته ببعض المشاكل الفلسفية فمنحها حلولا إلهامية، مصوغة فى أسلوب أدبى، ومجموعة هذه الحلول هى التى كونت العقيدة الإسلامية، وهى التى صارت فيما بعد نقطا محددة فى النظر الفلسفى عند العرب. وإذاً، فلم تكن المشكلة العامة عند العرب هى البحث عن الحقيقة مادامت هذه الحقيقة قد قدمت إليهم فى عدة من هذه النقط الجوهرية، وإنما كانت هى التدليل بالبراهين التحليلية العقلية على هذه الحقيقة التى بسطت بطريقة إلهامية، واستبدال الصورة الأدبية التى صيغت فيها بصورة تتفق مع مناهج الفلسفة القديمة، وذلك هو ما يمكن أن يطلق عليه اسم: المشكلة المذهبية.

نعم، إن بعض العقول قد أضاعت الغاية المرادة من هذه المشكلة وأخذت تعنى بالفلسفة أكثر من عنايتها بالعقيدة التى كان ينبغى ألا تكون الفلسفة إلا منهجاً لها، بل إن هذه العقول قد استخدمت الفلسفة في تشويه العقيدة، ولكن هذه الحركات لم تكن إلا الخطوة الثانية فى تاريخ الفكر العربى؛ أما الخطوة الأولى فهى حركة البحوث المذهبية.

وإذاً، فمن المهم أن نعرض هنا المباحث العقيدية التى عنها صدرت هذه الحركة ونمت. وهذا هو الذى سنفعله حين نبسط إلهيات القرآن.

إن معرفة محمد الإلهامية المباشرة لربه هى قبل كل شيء معرفة لإله واحد قادر، إن فكرة الوحدة الإلهية المتعارضة مع عقيدة التعدد العربية قد استولت على النبى أثناء اعتكافه فى غار حراء، أما فكرة القدرة الإلهية، فقد أخذت تعظم فى نفسه بمقدار ما كانت مقاومة العرب الجاحدين تتجسم ثم تنهزم أمام دعوته.

لسنا ندرى ماذا يقصد الأستاذ «كارادى فو» بهذه العبارة، فإذا أراد بها أن فؤاد النبى كان يزيد قوة وثباتا بقدر ما يرى من انهزام خصومه وتقهقرهم أمام دعوته، فنحن نقره على ذلك، أما إذا كان يريد أن يقول: إن إلهام الوحدانية سبق إلهام القدرة

إلى نفس النبى، وإن عقيدة القدرة لم تستول على نفسه إلا بعد أن جرب أثرها فى انهزام خصومه فذلك خطأ، لأن الفطرة السليمة لا تتمثل إلها واحداً عاجزا البتة، بل بالعكس إن أثر القدرة أظهر فى الشعور الإنسانى العادى من أثر الوحدانية، إذ إن الأولى تدرك بالإحساس، بينما تدرك الثانية بالتفكير، وقد اتفق الفلاسفة الإلهيون على أن القدرة هى أثبت دعائم الوحدانية، وأن أصح أدلة الثانية هو ما أقيم على أساس الأولى، فقال أفلاطون: إنه لو لم يكن واحدا، لحد الشريك سلطته التى لا يثبت الكمال الذى هو أول شروط الألوهية إلا بأن تكون لا حد لها.

والآن لنعد إلى النصوص التى كنا بصددها، قال البارون بعد ما تقدم:

«إن وحدة الإله قد أكدت بدون برهان فى نصوص القرآن كما هى فى صيغة العقيدة الإسلامية: لا إله إلا الله».

ولا أحب أن أعلق على هذه الجملة بأكثر من أن ألفت نظر هذا الأستاذ المستشرق، الذى لابد أن يكون قد قرأ القرآن مرارا، إلى أنه ما كان يليق به أن يغفل عن مثل قول القرآن:

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء: ٢٢)

تلك الآية التي هي قضية شرطية بارعة يمكن أن تبقى على حالها، أو أن تحول للتفنن في الرد، إلى قضية حملية كما كان مناطقة الإغريق يفعلون، وفي كلتا الحالتين تنتج الجزم بالوحدانية، لانتفاء الفساد الذي ينتج من التعدد بثبوت أدق أنواع النظام.

تابع «البارون كارادى فو» بحوثه عن القرآن فقال: «إن هذا الإله الوَاحد هو إله التوراة وإله إبراهيم وهو الذى ظهر (لموسى) من خلال الهيش الملتهب:

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۞ إِذْ رَءَا
نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ
أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۞ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۞ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ
فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۞ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ
لِمَا يُوحَىٰٓ ۞ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾

سورة طه من آية ٩ إلى آية ١٤

«إن محمدا حين أعلن أن الإله لا يلد أدان بضربة واحدة عقيدة

الثالوث المسيحية وبعض عقائد شعبية أخرى مختلفة كالعقيدة التى كانت تقول بأن «إدراس» هو ابن الإله، أو التى كانت تحاول أن ترى فى الملائكة بنات للإله».

ولعل «البارون» يقصد بـ«إدراس» هذا: «العزير»

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾

(سورة التوبة: ٣٠)

ثم قال البارون: «قرر محمد إذاً، أن الإله كائن واحد مخالف للعالم مخالفة مطلقة».

لا يخفى على من له دراية بالفلسفة أن أسمى نظريات الفلاسفة التى قرروها فى الإلهيات هى مخالفة الإله الكاملة لكل من عداه بحيث لا يماثله أى موجود أدنى مماثلة، وأن كل الفلاسفة الذين لهم مذاهب محترمة فيما وراء الطبيعة قد اتفقوا على أن المماثلة بين الإله وغيره منعدمة، وأن ما فى بنى الإنسان

من سمو وإدراك ليس إلا أشعة بسيطة من فيضه على البشر، ليستطيعوا الاتصال به لا أكثر، ثم قال الأستاذ:

«إن المواضع التى تتعلق بالقدرة الإلهية كثيرة العدد فى القرآن، وهى أكثر إسهابا من المواضع المتعلقة بالوحدانية، وقيمة هذه الآيات تظهر فيما تحتوى عليه من ثناء، إن الإله عند المسلمين كما هو عند اليهود يستدل على وجوده بقدرته، وإن هذه القدرة نفسها واضحة، وهى تظهر بثلاث كيفيات: الأولى فى الطبيعة، والثانية فى التاريخ العام، والثالثة فى المعجزات، وهذه المظاهر الثلاثة توراتية»(١)

وهاك هذه الكيفيات الثلاث:

(١) مظهر القدرة الإلهية فى الطبيعة:

«إن الإله الذى يراه محمد فى الطبيعة هو ذلك الخالق، ذلك الحاكم للعالم الذى كان حسبه أن يقول فى سفر التكوين: ليكن النور فكان، والذى أمامه -كما قالت المزامير-: هربت البحار، وقفزت الجبال، والذى تسبح بحمده السماوات والأرض والشمس والكواكب والضباب».

---

(١) توراتية: نسبة إلى التوراة.

هذه هي عبارة المزامير، والآن استمع ما قاله القرآن:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

(سورة النور: آية ٤١)

﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

(سورة البقرة: آية ١٦٤)

٢- مظهر القدرة فى التاريخ:

قال الأستاذ «كارادى فو»: «إن برهان قدرة الإله عن طريق تاريخ الشعب العبرى مذكور بوفرة في التوراة التى يصلصل فيها صدى صوت الإله بدون انقطاع قائلا: «أنا الذى أخرجت آباءكم من أرض مصر وفتحت البحر أمامهم وأرشدتهم بالسحاب»، والقرآن يتخذ هذا البرهان نفسه، ولكنه لا يمنحه من القوة والفصاحة المقدار الذى منحه البراهين السابقة» (أى براهين ظهور القدرة الإلهية فى الطبيعة)، إلى أن يقول: «من الممكن أن يلاحظ أن القرآن قد اختار للاستدلال على الإله أروع ما فى الطبيعة وأرهب ما فى التاريخ».

كتب الأستاذ «كارادى فو» قبل هذه الجملة الأخيرة وبعدها عبارات لا تتفق مع العقيدة الإسلامية، ونحن - وإن كنا لا نفرض على العلماء المستشرقين الإيمان بالإسلام فرضا - نرى أن هذه العبارات من الناحية العلمية البحتة غير مسلمة، بل هى ضعيفة، لأنها مؤسسة على الفروض والتخمينات أو على الاستنباط الخاطئ، ولكننا آثرنا أن نتخطاها الآن، لنعود إليها حين نعرض لآراء القسم الثانى من المستشرقين، وهى الآراء التى اصطدمت مع القرآن لسبب من الأسباب التى ذكرناها فى الكلمة السابقة.

٣- مظهر القدرة فى المعجزات:

نحن نعلم أن أهم معجزات النبى هى معجزة القرآن، ولا نكلف الأستاذ «كارادى فو» الإيمان بهذه العقيدة، ولكننا نكتفى منه فى هذا المقام بتلك الملاحظة القيمة التى سجلها فى العبارة الآتية: «إن القرآن قد أبان جيدا الشروط التى يجب أن تصير البرهان المؤسس على المعجزة منتجا، إذ اشترط وجود الاستعداد القلبى لتصديق المعجزة عند الذين يشاهدونها فقال:

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ
لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ
مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ * وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ
وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ
أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

(سورة الأنعام آية ١٠٩ وما بعدها).

من هذا البحث الوجيز الذى قدمه إلينا الأستاذ «كارادى فو» عن القرآن، ومن النصوص القرآنية التى أشرنا إليها آنفا يتبين جليا أن القرآن إلى هنا قد عرض لخمس مشاكل هى من أعوص النظريات الفلسفية وأعظمها خطرا وهى:

(١) الألوهية.

(٢) نظرية الوحدانية.

(٣) نظرية القدرة.

(٤) نظرية التنزه عن الإنسال.

(٥) نظرية مخالفة واجب الوجود لكل من عداه من الموجودات، وليس هذا هو كل ما عرض له القرآن من المسائل الفلسفية بل هناك نظريات أخرى سنشير إلى عرضه لها فى الفصول الآتية، ولا أحسب بعد ذلك أن كتابا يعرض لهذه المشاكل الفلسفية المعقدة ويكلف معتنقيه بالنظر فيها يصح أن يتهم بأنه اضطهد الفكر وحارب النظر، ولكنه الجهل أو الغرض هو الذى يحيد بصاحبه دائما عن الصراط المستقيم.



تتمة البحث فى إلهية القرآن:

عرضنا فى الكلمة السالفة لتلك الفكرة الخاطئة التى أذاعها «رينان» عن الإسلام، والتى مؤداها أنه حارب العلم واضطهد الفلسفة، وأبنّا أنها بعيدة عن الحقيقة، وذكرنا فى معرض الرد عليها طرفا من آراء الأستاذ «كارادى فو» التى أثبت فيها أن القرآن عرض لعدد عظيم من كبريات المشاكل الفلسفية، وسردنا منها مشاكل: الألوهية والوحدانية والقدرة والتنزه عن الإنسان ومخالفة الحوادث، ونتابع بحثنا فيما بقى من هذه المشاكل الفلسفية التى ألم بها القرآن، ثم قال كلمته الحاسمة فى حلولها المختلفة قبل ترجمة الفلسفة الإغريقية إلى العربية.

وهاك أهم ما بقى من هذه المشاكل: قال الأستاذ كارادى فو: «إن علم الله يظهر فى القرآن كشرط أساسى لقدرته، أو كناحية من نواحيها، وهو وارد فى ذلك الكتاب بطريقة أكيدة بحيث لا يقل فى ثبوته عن القدرة نفسها.

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (سورة الأنعام: آية ٥٩).

«إن القرآن يؤكد في وضوح روحانية الإله[1] التى يلاحظ صلتها الوثيقة بالوحدانية والقدرة والعلم والجلال، إن الله عنده هو الذى يحيط بكل شىء، ولا يمكن أن يحاط به، وهو المنزه عن كل ما يلحق الأبدان، وهو أسمى من طبيعة الإنسان، ومن طبائع جميع الكائنات الأخرى، وهو أرفع من كل ما عداه رفعة تجعل حتى رؤيته مستحيلة

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

(الأنعام: ١٠٣)

«من هذه النقطة، وهى نقطة الجلال الإلهى، نشأت بين المسلمين مشكلة كبرى احتدم حولها الجدل فى عصورهم الفكرية الأولى، كما احتدم بين المسيحيين من قبل، وهى مشكلة إمكان رؤية الإله فى حالة الغيبوبة أو فى مقام الشهود».

---

(١) معنى هذه الجملة: أن الألوهية فى الإسلام ليست مشوبة بشوائب المادة كالألوهيات فى بعض الديانات الأخرى.

من الملاحظ أن الفوز بهذه الرؤية فيما يرى القرآن أمر شديد العسر، ففى السور التى تحوى القصص التوراتية يرى القارئ هذا العسر جليا، إذ يشاهد أن آدم لم ير الله حين كلمه، وأن نوحا لم يفز بهذه الرؤية بعد نجاته من الطوفان، وأن إبراهيم - مع أنه خليل الله - لم ير إلا ملائكته، وأن موسى حين طلب أن يراه أجابه بقوله:

﴿ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾

(سورة الأعراف: ١٤٣)

وهذا معناه أنه ندم على هذه الجرأة، وأن محمدا نفسه - وهو خاتم النبيين - لم ير إلا الروح الأمين: الملك جبرائيل، وأن الأوصاف القرآنية للجنة تنص على أن المختارين يستمتعون بمرأى مساكن جميلة، وحدائق ومخلوقات من الجنسين، ولكنها لم تنص على أنهم يستمتعون بمرأى الإله، أما فى حالة الحكم بينهم، فهم سيحشرون فى حضرة الإله،

ولكن بدون أن يفهم أحد الكيفية التى سيكون بها هذا الحضور، أو الطريقة التى سيتحقق عليها.

«نعم إن فى القرآن آيات غريبة في بابها، إذ يقول بعضها :

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ
يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم ﴾

(سورة الحديد: ١٢)

والبعض الآخر يقول:

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(سورة النور: ٣٥)

وإذا فتشنا في كتب التفسير ألفيناها لا ترى في هذه الآيات إلا تشبيها وتمثيلا» انتهى.

لا ريب أن الأستاذ كارادى فو لم يفهم هذه الآيات على حقيقتها، فتوهم أن الذى يسعى بين أيدى المؤمنين وبأيمانهم فى الآخرة إنما هو الله نفسه، لأن القرآن أطلق على هذا الساعى اسم النور، وقال فى آية أخرى: الله نور، ولعل الرجل معذور فى هذا الفهم، لأنه أجنبى مهما كانت درايته باللغة، فإنه قاصر عن فهم أسرارها، ولا سيما أسرار القرآن، ولكن الذى نأخذه عليه هنا: هو أنه اتخذ هذا الفهم الملتوى أساسا لنقد تخبط فيه تخبطا لا يليق بالعلماء. وقد نفند هذا النقد حين نعرض لقسم الآراء الباطلة من منتجات المستشرقين.

أثبت الأستاذ «كارادى فو» بعد هذه النقطة أن القرآن عرض لمشاكل أزلية البارى وثباته وبدء الخلق ومصير العالم فى الحياة الأخرى، فقال فى الأولى: إن أزلية الإله مثبتة فى القرآن، وإن لم يكن قد ألح عليها كثيرا، وقال فى الثانية: إن ثبات الإله يتجاوب فى القرآن مع أزليته وأبديته وعلمه، أو هو نتيجة لها، وهذا الثبات الإلهى يتضح على الأخص فى إدارته للكون:

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

(سورة الفتح: ٢٣).

غير أن الثبات الإلهى الوارد فى القرآن يتعلق بالنواميس التاريخية والأخلاقية، أما عن الثبات الميتافيزيقى فلم يتساءل كيف يمكن التوفيق بينه وبين إيجابية الإله وتأثيره فى الكون؟

ولست أدرى كيف يعتبر الأستاذ «كارادى فو» القول بثبات الإله مع القول بإيجابيته فى القرآن أمرا غريبا، مع أن أرسطو – وهو الذى أسرهم بفلسفته – قرر أن الإله ثابت وأنه هو المحرك الأول لجميع المتحركات، مع أن الإجماع منعقد على أن التغير دليل الحدوث، والتحرك دليل التأثر بالمحرك، والثبات لا يتعارض مع الإيجابية، وأن الفرق جلى بين من يفقد الحركة لعجزه عنها، وبين من يتجرد منها لتنزهه عنها، وقال فى المشكلة الثالثة: إن فكرة بدء الخلق ليست محددة فى القرآن تحديدا تاما، لأن نصوصه كنصوص التوراة لم ترفض وجود «الكاؤس»[1] الذى صنع منه العالم.

---

(١) الكاؤس: هو العنصر الذى خلقت منه المخلوقات، وهو الماء عند فريق من الفلاسفة، والهواء عند فريق ثان، والنار عند فريق ثالث، وشيء غير محدود عند فريق رابع، والسماء عند فريق خامس.

وقال في المشكلة الرابعة: إن الإنسان ليدهش من العبارات غير المحددة الواردة في القرآن فيما يختص بأبدية الجزاء أو انتهائه:

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا
ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا
مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ (سورة هود: ١٠٦-١٠٨).

ويعلق الأستاذ كارادى فو على هاتين الآيتين بما يفيد أن فكرة أبدية الجزاء لم تؤخذ صراحة من القرآن، وإنما هو يلمح إلى الأبدية ولكنه لا يصرح بها، وأن المتكلمين هم الذين قالوا بالأبدية بعد تأثرهم بالفلسفة الإغريقية.

ولست أدرى مم استنتج الأستاذ كارادى فو هذا الحكم؟ إن كان قد استنتجه من التعليق على دوام السموات والأرض، فإن القرآن لا يريد السموات والأرض الموجودة الآن، وإنما يريد تلك التى عناها بقوله:

﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ ﴾

(سورة إبراهيم: ٤٨)

وهذه خالدة شبيهة بالعالم الآخر الذى خلقت فيه، وإن كان قد استنتجه من التقييد بالمشيئة الإلهية، فإن هذا التقييد لا يفيد إلا إمكان الزوال إذا تعلقت المشيئة به، والأستاذ بصفته عالما يعرف أن كل ما عدا الله فى نظر الإسلام ممكن، فنص القرآن على إمكان الزوال فى هاتين الآيتين لا يفيد ضرورة تحقق هذا الزوال، بل بالعكس هو يفيد تحقق الدوام وإمكان الزوال.

■ **الأخلاق الفلسفية:**

بعد أن انتهى الأستاذ «كارادى فو» من بسط إلهية القرآن، عرض لما فيه من أخلاق فلسفية، فكانت إبانته إياها بمثابة رد قاطع على أولئك المتفيهقين والجاهلين الذين زعموا أن القرآن ليس فيه إلا نوع من الأخلاق العملية الساذجة المألوفة عند الشرقيين من الأمر بالصدق والأمانة، والنهى عن الكذب والخيانة، وما شاكل ذلك، فأثبت لهم أن قد احتوى بين آياته على أخلاق فلسفية هى فى أسمى درجات النظر. قال:

«إن علم الله وحكمته وقدرته ليست مقصورة فى القرآن على زمن إيجاد الكائنات، بل هى تحوطها فى مستقبلها الغابر، لأن هذه الكائنات لها عند الله غاية معينة قصد إليها من إيجاد المجموعة الكونية. وقد أبان هذه الغاية بكل بساطة فى قوله:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (سورة الذاريات: ٥٦)

«وفوق ذلك فإن الباحث يلاحظ فى القرآن أن كل جزء من أجزاء الطبيعة قد صنع لصلاح المجموع وللوصول إلى الغاية القصوى منه، ولا ريب أن هذه هى عينها نظرية التفاؤل المستنبطة من الإدراك الأولى للإله، وهو أنه عالم، قادر، خير، كل ما يفعله هو بقدر، وهو للصالح العام:

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا
رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ
فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا
خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾

(سورة الحجر: ١٩-٢١).

«لاريب أن من لديه دراية بالفلسفة يلاحظ أن من أجل النظريات التى سمت بأرسطو إلى الأوج هى نظرية الجزء للمجموع التى أعلن فيها أنه ما دام الكل هو فى مجموعه خير، فلا أهمية للجزء، وما دامت الغاية خيرا فلا يؤبه إلى الشرور الجزئية العارضة في الوسائل، وذلك كالمطر فإنه ضرورى للصالح العام، فإذا أفسد حبوب فقير، أو خرب بيت عجوز، فإن هذا لا يخرجه عن صلاحيته، ولا ينقله من مرتبة الخير إلى دركة الشر، فإذا ألفينا هذه النظرية فى القرآن، كان ذلك برهانا على أنه واجه أعوص النظريات الأخلاقية كما واجه أدق المشاكل الفلسفية».

عرض الأستاذ كارادى فو بعد هذه النظرية لنظرية القضاء والقدر فى القرآن، فقال ما مجمله: «إن القرآن قد ألح كثيرا على ذكر القدر، ولكن على الرغم من هذا إذا فحص الباحث بعقل هادئ وبدون تحيز، فقرات هذا الكتاب المتعلقة بالقدر، تبين له أنها ليست جبرية إلى الحد الذى ظنه كثير من الناس، وأنها على الرغم مما تحتويه من إرعاب من القدر ليست متعارضة مع العدالة أقل تعارض، وهاك مجمل الأفكار التى تحتويها تلك الآيات فيما أرى: إن الإله يعلم كل شىء قبل وقوعه، وبالتالى هو يعلم كل السيئات وما يتبعها من عقوبات،

والحسنات وما تستتبعه من مكافآت، لأن كل شيء قد كتب قبلا في كتاب محفوظ في السماء.

ولا يعنينا أن يكون لهذا الكتاب وجود حقيقي أو هو رمز لعلم الله بكل شيء، وإنما المهم هنا أن هذا التعبير يعادل من الجهة الفلسفية تأكيدا حقيقيا لسابقية علم الله بكل ما سيكون:

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

(سورة الحديد: ٢٢)

وليس معنى هذا أن المصيبة تصيب أحدا ظلما، فإنها إما أن تصيبه عدلا، وإما أن تصيبه في سبيل صالح المجموعة، وهو يعوض عنها جزاء في الحياة الأخرى، وليس معناه كذلك أن القدر السابق يلغي الحرية الفردية، كلا، وإنما معناه أن الإله لايجهل شيئا مما سيكون، وأن للفرد الاختيار بين الطريقين، ولهذا لن يستند في جزائه إلى ما هو مكتوب في الكتاب السابق، وإنما يستند فيه إلى الكتاب الذى سجلت فيه أعماله، وفي هذا برهان على أن الجزاء منوط بالعمل الفعلي، لا بالتقدير

قبل الوقوع، وإلى هذا يشير القرآن بقوله:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾

(سورة يس: ١٢)

لأن الكتاب المذكور فى الآية الأولى لم يخرج عن كونه منهج الكون الذى قدر الإله فيه سيره كله. أما الكتاب الثانى فهو سجل قيد فيه ما عمله كل فرد بدقة:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾

(سورة الزلزلة: ٧-٨).

غير أن المرعب فى هذا الموضوع هو تلك الآيات الأخرى التى تقول مثلا:

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

(سورة السجدة: ١٣)

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾

(سورة فاطر: ٨).

«فنحن إذا نظرنا إلى هذه الآيات على حدة، أى منفصلة عن الآيات الأخرى التى تقيدها ألفينا أنها ترمى إلى أن الله قد أجبر كلا على ما فعل، ولكننا إذا نظرنا إليها كما يجب على ضوء الآيات الأخرى، تحققنا أنها لا تلغى الاختيار الفردى، وأنه لم يكتب فى الضالين إلا من سيغلقون قلوبهم باختيارهم عن سماع الهدى، وإليك هذه الآيات:

﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ (سورة الأعراف: ١٧٩).

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾

(سورة إبراهيم: ٢٧)

«لا شك أن ما تحتويه هاتان الآيتان الأخيرتان عظيم الأهمية، لأنه تصريح بأن الفريق الذى عين فى كتاب القدر للجحيم ليس مؤلفا من

أشخاص عاديين سيؤخذون على غرة حتى يعترض بالظلم أو الإكراه، وإنما هو مؤلف من أشخاص سيصمون آذانهم عن سماع الهدى، ويغمضون أعينهم عن مشاهدته، ويحولون قلوبهم عن تعقله، وكل ذلك بإرادتهم الحرة واختيارهم البعيد عن كل تأثير، إذ ليس بين المقدر عليهم وبين سلوكهم العملي أية صلة واقعية تجذبهم قسر إرادتهم إلى ما قدر عليهم».

هذا هو مجمل آراء الأستاذ «كارادى فو» في المشاكل التي عرض لها القرآن ودار حولها الجدل في البيئات العربية قبل ترجمة الفلسفة الإغريقية، والتي تحمل بين ثناياها أقطع الردود على فكرة «أرنست رينان» التي أسلفناها في الكلمة السابقة، وينبغي أن نعيد هنا ما أسلفناه من أن لهذا الأستاذ آراء لا تتفق مع روح الإسلام سنعرض للرد عليها فيما بعد، ونضيف إلى ذلك أنه أحيانا يعبر عن الآيات القرآنية بقوله: قال محمد، وأحيانا أخرى بقوله: إن محمدا لا يرى كذا ويقصد القرآن، ونحن قد ضربنا صفحا عن هذه الهفوات، لأنها لا تعنينا في البحوث العلمية، ولأنه ليس في ملكنا أن نجعل هذا الأستاذ المستشرق مسلما بالمعنى الكامل لهذه الكلمة. فاكتفينا منه بما أثبته من شهادات قيمة للقرآن فيما نحن بصدده من احتوائه على النظريات الفلسفية المهمة وحلولها القويمة.



أسلفنا فى الفصل الأول من هذه السلسلة أن الباحثين المحدثين من الغربيين هم أكثر نزاهة وأعظم انعطافا إلى الحقيقة من القدماء، وقررنا أن من يحيد منهم عن جادة الصواب فإنما يهوى فى هذا الخطأ قسر إرادته بدافع الجهل أو السطحية، لا بالتعصب وسوء النية كما كان القدماء يفعلون، وبرهنا على هذه الدعوى برأى «البارون كارادى فو» الذى بسط فى إسهاب إلهيات القرآن، وأثبت أن هذا الكتاب قد عرض لأعوص مشاكل الفلسفة: كالألوهية والوحدانية، والقدرة، وتنزه الإله عن الإنسال، ومخالفته لكل من عداه، وعلمه بكل شيء، وعنايته الشاملة، وكماله التام، وكمشاكل القضاء والقدر، والحياة الأخرى والخلود فى النعيم والجحيم، وما شاكل ذلك مما استأنسنا به فى ردنا على نظرية «رينان» الخاطئة التى أشرنا إليها فى الكلمة الثانية من هذه الكلمات.

والآن نتابع هذه الفكرة فنقرر أن بحوث الغربيين عن الإسلام فى تقدم يوشك أن يكون مطردا نحو الاهتداء إلى الرشاد، وفهم هذا

الدين على حقيقته بفضل دراستهم العميقة لأصوله ومنابعه الجوهرية، ومن آيات ذلك أن الأستاذ «إميل ديرمانجيم» - وهو الذى أخذ عنه الدكتور هيكل باشا كتاب «حياة محمد» - يلاحظ «أن التسرع فى الأحكام قد حال زمنا طويلا دون دراسة علمية حقة لأصول الإسلام، وأن مجهودا جديا قد قام به فى القرن التاسع عشر: «كوسان دى بيرسيفال» و«موير» و«موى» و«مرجيليوت» و«نولديك» و«أسيرينجير» و«أسنوك هورجرونج» و«دوزى»، وأحدث من هذا المجهود الذى قام به «كاييتانى» و«لامانس» و«ماسينيون» و«مونتيه» و«كازانوفا» و«بيل» و«هوار» و«هوداس» و«مارسيه» و«أرنولد» و«جريم» و«جولد يزيهير» و«جود فروادیموبنين»، ويلاحظ كذلك أن بعض هؤلاء الاختصاصيين قد هووا مع الأسف فى الإفراط فى النقد، فكانت كتبهم - وهى لا تعتبر فى الحقيقة إلا طلائع للبحث - معاول للهدم، وأنه هو شخصيا قد عول على أن يسلك طريقا وسطا بين الإفراط والتفريط، فيتبع الرواية إلى الحد الذى لا يتعارض فيه مع النقد الحر، أى لا يسلم بالمعقول وغير المعقول كالمسعودى مثلا، ولا يغالى فى الهدم كما فعل بعض المستشرقين الذين عرضوا لدراسة الإسلام.

وقد سلك هذا السبيل فوفق إلى كثير من الحقائق، وإن كان له هو

الآخر هفوات سنعرض لها في حينها، ولكننا نكتفي اليوم بأن نسجل هنا بعض أحاسن آرائه في النبي (ﷺ) وفي القرآن، وتلك الآراء التي أدلى بها هذا الكاتب الممتاز يتعلق بعضها بمحمد ﷺ إنسانا، وبعضها به حكيما، وبعضها به نبيا، وإليك هذه الآراء:

■ محمد إنسانا:

نريد الآن أن نشير إلى رأى الأستاذ «دير مانجيم» في أخلاق النبي ﷺ الشخصية، لا لأننا في حاجة إلى التدليل برأى كاتب أوروبي على سمو هذه الأخلاق النبوية إلى أقصى ما تسمح به الطاقة البشرية، ولكن لنبين أن الباحث المحايد الدقيق إذا بذل أدنى عناية في البحث انكشف له من الحقائق ما يبهر اللب بسطوعه ولمعانه، وهاك موجزا في هذه الآراء:

«إن محمدا قد أبدى في أغلب حياته اعتدالا لافتا للنظر، فقد برهن – في انتصاره النهائي – على عظمة نفسية قل أن يوجد لها مثال في التاريخ، إذ أمر جنوده أن يعفوا الضعفاء والمسنين والأطفال والنساء، وحظر عليهم أن يهدموا البيوت، أو أن يسلبوا الثمار، أو أن يقطعوا الأشجار الثمرية، وأمرهم أن لا يجردوا السيوف إلا في حالة الضرورة القاهرة بل قد رأيناه يؤنب بعض قواده ويصلح أخطاءهم إصلاحا ماديا، ويقول لهم: إن نفسا واحدة خير من أكثر الفتوح ثراء.

«إن الغنائم الحربية كانت فى ذلك العهد النتيجة العادية لكل جهاد، بل يمكن أن يقال: إنها كانت – مع التجارة وتربية الحيوانات – هى الصناعة الوطنية العربية، فأعلن محمد إباحتها لأتباعه نتيجة لضعفهم، ولكنه حددها بقواعد دقيقة، فخصص الجزء الأكبر منها للصدقات ولحاجات الجيش، إنه قد حظر في قسمة الأسارى إبعاد الأطفال عن أمهاتهم، إنه لم يكن يستطيع أن يغير أخلاق شعبه تغييرا تاما، ولكنه نجح فى أن يقومه فى نقط كثيرة. إنه هو شخصيا لم يكن إلا رجلا أميا خلوا من الثقافة تقريبا كجميع بنى جلدته فى عصره، ولكنه كان يعلم أن الإله رحيم رحمة لا حد لها، فأجهد نفسه فى أن يعلو على الطبيعة البشرية، وأن يقهر فى نفسه الميول الانتقامية، وهو فى هذا يقول: كاد الحليم أن يكون نبيا، بل يمكن أن تكون آلامه التى كان يعانيها ناشئة عن أنه لم يلحق الكمال الذى كان يبغيه، إن إخلاصه لا يمكن أن يكون فى العصر الحاضر موضع شك، فإن حياته كلها تشهد أنه كان يؤمن برسالته إيمانا عميقا، وأنه تقبلها – لا بدون بطولة – كحمل يجب عليه أن يحتمل أثقل أوزانه، إن قوة عبقريته الإنشائية واتساعها وذكاءه العظيم ونظره الصائب إلى الحقائق، وسيادته لنفسه وقوة إرادته وحكمته واستعداده للعمل وحياته الواقعية، كل ذلك يمنعنا من أن نعتبر هذا الملهم المضاء البصيرة مصروعا أو معتوها ذا خيالات زائفة، مادام قد ثبت أن الزيف فى مبدأ رسالته مستحيل القبول، فكيف

يتصور أن ينقلب كاذبا فجأة ذلك الذى كان نجاحه يظهر له كبرهان ساطع على تأييد الإله لدعواه؟ وكيف يمكن أن يجرؤ على تشويه رسالته فى الوقت الذى كان يرى فيه أنها مقدسة مؤيدة من الإله؟»[١].

■ محمد حكيما:

قال: «إن محمدا كان رجلا مؤمنا بالعالم الروحانى، إنه ذلك الإنسان الذى للأشياء الخفية عنده أهمية تفوق أهمية الظواهر الحسية، والذى عنده تتقدم اللامرئيات على المرئيات، والذى يرى أن النظام الروحانى هو النظام الأساسى، بل إنه هو النظام الوحيد الذى يوجد حقا. إنه قبض على الحقيقة العميقة ثم صدع بين بنى الإنسان باكتشافه إن هذا القلب الخلو من كل كذب، ومن كل ثقافة مزيفة ومن كل غرور قد استحوذ دفعة واحدة على الصخرة المتينة.[٢] وإذ كان حقيقيا[٣] بالمعنى

(١) انظر صفحات ١٩٣و١٩٤و١٩٧و١٩٨ من كتاب «حياة محمد» لمؤلفه «دير مانجيم»

(٢) هذا تصوير لحالة من يهتدى إلى خير ما يعتمد عليه، وفيه تشبيه بالغريق الذى يعثر فى وسط الخضم على صخرة متينة يتشبث بها فينجو من الغرق.

(٣) انقسمت المذاهب الفلسفية بإزاء ما وراء المحسات إلى ثلاثة أقسام: الأول: مذهب الحقيقية، وهو الذى يرى أن للكليات وجودا ذاتيا حقيقيا سبق وجود المحسات وبه قال أفلاطون والثانى: مذهب الاسمية وهو الذى يرى أن المفاهيم ليست إلا أسماء اعتبارية، مسمياتها المحسات، وبه آمن السوفسطائيون ومن نحا نحوهم والثالث: مذهب المفهومية، وهو الذى يرى أن للمفاهيم وجودا ذهنيا انتزع من المحسات، وبه قال ارسطو، والأستاذ «دير مانجيم» يرى أن نبى المسلمين من أنصار الأول، وهو أسماها جميعها.

الكامل لهذه الكلمة: «Realiste» فقد كان نجاحه فى الحياة العملية حين وكلت إليه أعمال العالم الخارجى أتم وأكمل لأن المرئى هو «مينا» الساعة التى عليها يرتسم اللا مرئى، ولأنه هو جذر النبتة الحقيقية، إذ ما هو أدنى، صورة لما هو أعلى[1].

■ محمد نبيا:

بعد أن لخصنا لك شيئا من آراء هذا الكاتب عن النبى ﷺ كإنسان ثم عنه كحكيم، وجب علينا أن نجمل لك آراءه عنه كنبى، ولكن بعد أن نشير إلى آرائه فى النبوة وآثارها فى الإنسانية بوجه عام:

«إن النداءات الداخلية هى لتاريخ الإنسانية أشبه الأشياء بمفاصل الجسم البشرى التى تسمح له بأن يتحرك ويؤدى مهمته فى الحياة، فمن وقت إلى آخر ترن دعوة، وتسمع صرخة فى الليل، وينادى صوت فى السكون فيهب إذ ذاك رجل قافزا من نومه ويسير دون أن يدرى إلى أين يتجه بالضبط كإبراهيم وإلياس، ثم يستمر فى سيره بلا راحة ولا فتور، ويظل يتكلم حتى يوقظ الآخرين من نومهم الثقيل وبهذا يتكون سلام

(١) انظر صفحتى ٨٠و٨١ من كتاب «حياة محمد» لدير مانجيم.

الإنسانية فى سلسلة من الأفعال الحرة.. وهكذا نهض محمد ليدعو بنى جنسه إلى دين واحد هو دين الإله الواحد، وليوقظ جزءا من آسيا وأفريقيا وليحرر من عبودية الجامدين كل الذين يفهمون رسالته الحقيقية، ولكى يجدد بلاد فارس التى كان النعاس يشملها، ولينعش المسيحية الشرقية التى شوهتها المجادلات الخيالية من الحماس ومن الاعتقاد العارى عن الوحدة.. إن الأنبياء يفرضون أنفسهم على العالم كالقوى الطبيعية العظمى الخيرة القاسية كالشمس والمطر وكعواصف الشتاء التى تصيب الأرض العربية لتكسوها بالخضرة فى بضعة أيام، فبثمارهم ينبغى أن يحكم عليهم. إن أفضل براهين رسالاتهم هى تلك العقول المطمئنة والقلوب المفعمة بالسكينة، والإرادات القوية، والأوجال المستحيلة إلى هدوء، والأمراض الأخلاقية التى أبرءوا الإنسانية منها، والصلوات التى تصعد إلى السماء النقية.

«إنهم قد هوجموا بالكبرياء العالمية، وهم بدون معتمد وبدون قوى مادية، ومع ذلك فقد حملوا وحدهم سر أعلى أنواع الحرية الذى يمكن أن يلخص فى هذه العبارة: لأن تعصى

الناس خير لك من أن تعصى الإله الذى أمامه وحده يجب أن يسجد الجميع متساوين.

«إن محمدا كان يجهل كل ما ليس علما مطلقا، وكان أميا بالمعنى الكامل لهذه الكلمة، وليس معناها - فيما أرى - العامية أو الخلو من التأدب، وإنما الأمى هو بالأحرى الرجل النقى الذى جمع بين الطبيعة وما فوق الطبيعة والبرىء من الأحكام العقلية والقلبية المتسرعة. ومع ذلك فقد نهض لكى يدعو العلماء إلى أن يفهموا ما يقولون وليقوم الطرق الملتوية التى يضل فيها من يزعمون أنهم حكماء إن الناس حالة سماعهم خطبه الملهمة وكناياته الملتئمة مع عصره قد أحسوا بجاذبية تصلهم بالسر الخفى الذى يحوطهم وخضعوا للإله فرأوا كيف يستطيعون أن يهدوا وجودهم المؤقت وهكذا وجدوا فيه مثالا حيا لا يستطيع الفلاسفة ولا رجال الحكومات أن يقدموه.

«إن محمدا قد جاء فى عصر يعتبر أحد عصور التاريخ المظلمة إذ إن جميع المدنيات من حدود الجول إلى أقاصى الهند كانت منهارة أو مضطربة.. إن دعوة محمد قد أوجدت فى جزيرة العرب تقدما غير قابل للاعتراض، سواء أكان ذلك

فى دائرة الأسرة أم فى دائرة الجماعة، أم فى الناحية الصحية فإن حظ المرأة قد تحسن وإن الفحش والزواج المؤقت والمعاشرة الحرة قد حظرت، وقد حرم أيضا إكراه الإماء على اتخاذ الفحش وسيلة لثراء مواليهن كما كان متبعا فى ذلك العهد

﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾

(النور: ٣٣).

إنه قد أباح الرق، ولكنه نظمه وضيق حدوده وجعل العتق عملا خيرا، بل كفارة عن بعض المعاصى.

إن أبا ذر دعا بلالا يوما بابن الأمة، فقال له النبى: إنك لا تزال تشعر بشعور الجاهلية الأولى.

إن الإلهيين والأخلاقيين والفقهاء والمتنسكين قد وجدوا فيما بعد فى دعوة محمد الأسس الأولية لمعارفهم، فاسترشد بها كل منهم فى طريقه الخاص مع حفظ المبدأ الجوهرى، وهو أن الإله هو المحور الرئيسى فى كل شىء. لقد اعتمدت المذاهب المختلفة فى تأسيس آرائها المتناقضة على أحاديث حقيقية أو مزيفة عزيت إلى النبى، بل إن المشكلات الميتافيزيقية العظمى التى لم يكن محمد يحب أن يلح عليها قد عولجت فيما بعد

استنادا على تلك الأحاديث نفسها، ففيما يتعلق بحرية الفرد مثلا نجد أن الجبرية وخصومهم القدرية قد فتشوا عن أدلتهم فى الكتاب والسنة، وهذه المسألة قد بسطت بعد ذلك أمام المدرسين المسيحيين كالقديس توماس، وعند بعض المحدثين كبوسويه والجانسينيين والمولينيين بنفس العبارة التى بسطت بها عند العرب وحلت بنفس الحلول التى وضعوها لها، وفى الواقع أن القرآن يلح على بيان القدرة والعلم الإلهيين الكاملين ويعلن أن كل شيء آت من الإله ولكنه يصرح أيضا بأن الشر وليد الإرادة الإنسانية الفاسدة وعلى الجملة يستطيع الباحث أن يجد فى القرآن نصوصا لحرية الفرد أو عليها وهاتان النقطتان هما طرفا السلسلة التى لم يعثر العقل البشرى بعد على حلقاتها الوسطى فإذا كان المسلمون – وعلى الأخص فى عصر التدهور – قد أبدوا انعطافا نحو الجبرية الشرقية فإنه ليس فى الإسلام ما يضطرهم إلى هذه الجبرية على عكس ما كان «ليبنتيز» يعتقد مسايرة للرأى العام، إذ حين سأل أحد الأعراب محمدا عما إذا كان يكتفى فى حفظ ناقته بالتوكل على الله أجابه قائلا: «اعقلها وتوكل» وحينما قيل له: إنه مادام أن كل شيء معلوم لله مقدما فإن العمل عبث قال: كلا «اعملوا

فكل ميسر لما خلق له)). وهذا معناه: ((ساعد نفسك تساعدك السماء وقال: كذلك اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا [1] وهذا هو الحل الذى ارتضته الأخلاق فشهد لها بالحكمة [2].

■ **القرآن:**

لننظر الآن فى رأى هذا الكاتب فى القرآن وإعجازه بعد أن ذكرنا لك رأيه عن النبى قال: إن كل نبى يجب أن يأتى ببرهان من طبيعة خاصة يكون آية على صدق رسالته وهذا البرهان يسمى بالمعجزة، وهو يختلف عما يأتى به الأولياء ويسمى كرامة.. والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة [3] فإن جماله الأدبى الفائق وقوته النورانية لا يزالان إلى اليوم لغزا لم يحل، وهما يضعان من يتلونه – ولو كانوا أقل الناس تقوى – فى حالة خاصة من الحماس.

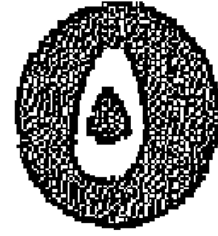
---

(١) يظهر أن هذه الحكمة هى للإمام على -كرم الله وجهه -لا للنبى ﷺ كما ذهب إليه دير مانجيم.

(٢) انظر صفحة ٢٧١ وما بعدها من ((حياة محمد)) لدير مانجيم.

(٣) نحن نعلم أن القرآن هو المعجزة الأساسية، لا الوحيدة للنبى ﷺ، ولكننا كثيرا ما نصادف عند المستشرقين هذا الجزم بأن نبي المسلمين اعترف هو نفسه بأنه ليس له معجزة أخرى غير القرآن، ولست أدرى أين عثروا على هذا الاعتراف .

لقد تحدى محمد الأناسى والجن أن يأتوا بمثله وهذا هو برهان رسالته بالمعنى الكامل، ولم يكن الأمر فى القرآن يتعلق بقيمة أدبية استثنائية فإن محمدا كان يحتقر الشعراء ودفع عن نفسه أن يكون واحدا منهم، ولكن الأمر يتعلق بشيء آخر غير هذه القيمة.. وهو الفرق بين وحى الإله وإلهام الشياطين."[1].



أسلفنا فى الفصول السابقة من هذه البحوث آراء بعض علماء أوروبا المحدثين فى الإسلام ونبيه وكتابه، وأشرنا إلى ما لاحظناه فى مؤلفاتهم من مآخذ وهفوات وأبنا أنها ضئيلة إلى جانب ما أثبتوه فى تلك المؤلفات للإسلام من فضائل وخيرات، وقررنا أن السبب فى هذه الهفوات هو الجهل ببعض أسرار الإسلام، أو النشوء بين أحضان دين آخر.

أما اليوم فإننا سنحاول الكتابة عن نوع آخر من العلماء الغربيين الذين تناولوا الإسلام، وهم العلماء الذين لا تعتبر أخطاؤهم فيما كتبوه هفوات كهفوات الذين أسلفنا الحديث

(١) انظر صفحتى ٢٧٦ و ٢٧٧

عنهم، وإنما تعتبر سقطات ضخمة ليس من السهل أن نتسامح فيها أو أن يمر بها التاريخ مغضيا.

وأول هؤلاء العلماء الذين وقع اختيارنا عليهم لنحاسبهم هنا على ما فرطوا في جنب الحقيقة حسابا عسيرا، سداه المنطق، ولحمته النزاهة والهدوء هو الأستاذ «بول كازانوفا» الذى كان حين ألف رسالته التي نحن بصددها أستاذا للغة العربية وآدابها في «الكليج دى فرانس» ثم انتدب بعد ذلك للتدريس فى الجامعة المصرية.

عنوان هذه الرسالة: «محمد ونهاية العالم» وغاية مؤلفها منها - فيما يظهر - هى محاولة إثبات أن القرآن قد أضيف إليه بعد وفاة النبى ما دعت إليه الحاجة فى نظرى أبى بكر وعمر مثل الآيات التى صرحت بأن الساعة من الأمور التى استأثر الله بعلمها بعد أن لم يتحقق ما أخبر به النبى من أنها ستقوم عندما تنتهى مهمته، وقد يكون ذلك فى حياته أو على أثر موته مباشرة.

عرض هذا الأستاذ لتلك المسألة فبحثها البحث الذى هيأته له بيئته ودراسته، وانتهى منها إلى النتيجة التى شاءها له منطقه، والتى سنقفك عليها وعلى مناقشتها بعد قليل.

أما السبب الذى حدانا إلى مناقشة هذا البحث الآن فهو أنه يعتبر أول بحث من نوعه عرض لصحة القرآن أو تبديله وإضافة شيء إليه وأنه لهذا كان حدثا خطيرا، أثار ثائرة كثير من العلماء الباحثين فحمل فريقا منهم على متابعته، ودفع فريقا آخر إلى مهاجمته، وسوف يكون مثار جدل عنيف ما لم تقم الأدلة على بطلانه ولا ريب أن هذه الأدلة إذا لم يسطع نورها في حصون الإسلام فعليها العفاء لأنه من غير الممكن أن يتيسر للمستشرقين الذين يخالفون «كازانوفا» فى هذا الرأى الخاطئ مثل ما يتيسر للمسلمين المثقفين من البراهين على بطلانه.

لهذه الأهمية العظيمة التى يمثلها هذا البحث رأيت من الواجب على أن أغامر فى مناقشته، فإن لم أتمكن من صد تياره، فإنى على الأقل أساهم فى نقاش بحث كتبه عالم شهير عن الإسلام، وأثيرت حوله زوبعة من الجدل ولا تزال تثار وستظل ما شاء الله لها أن تظل ولن تخمد إلا بالأدلة القاطعة التى تقام على بطلانها من جانب باحثى المسلمين وقد عبرت هنا بكلمة أغامر، لأنى أعلم أن بعض القراء سيسخطون على هذا البحث ويقولون: مالنا ولإثارة مثل هذه المناقشات، أفما كان يجمل بنا أن نكتب فيما هو أنفع من ذلك وأن نترك أمثال

هذا البحث تجنبا لإيقاظ الفتن وبعدا عن تجروؤ الناس على قداسة الإسلام ولكنى أجيب هؤلاء مقدما بأننا لو سمعنا نصائحهم لكان مثلنا كمثل النعامة التى تخفى وجهها ظانة أن الصياد لا يراها مادامت لا تراه، فتكون النتيجة أن تذهب ضحية هذا الحمق، وإذاً فيجب علينا ألا نجبن أمام هذه المثالب التى وجهها خصوم الإسلام إليه وألا نتروى فى أركان الخمول راجين أن نعود إلى الظهور بعد مرور العاصفة فتكون النتيجة أن تجتاحنا وتهدم علينا الأسوار التى انزوينا فى أركانها ولم ندفع عنها غوائل العدوان.

على أنى أعود إلى أولئك الذين عساهم يعترضون علىّ فأرميهم علنا بالتجافى عن روح الإسلام ونص القرآن الذى يقول: ﴿ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ (آل عمران: ٦٤).

ويقول ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (سبأ: ٢٤).

والذى قدم لنا أرفع المثل للجدل المنطقى المؤسس على الحجة القاطعة، وليس هذا فحسب بل إن حياة النبى العملية

كانت كلها نموذجا من نماذج الشجاعة والجهاد والإقدام والنضح عن العقيدة ولم يؤثر عنه مرة واحدة فى حياته أنه قال: «طأطئ رأسك للعاصفة تمر» بل أثر عنه أنه قال: «لو وضعت الشمس في يمينى والقمر فى يسارى لا أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

وبناء على كل ما تقدم يجب علينا أن نواجه هذه الفكرة بكل ما أوتينا من قوة ومعرفة.

غير أننا آثرنا قبل أن نبسط هذا البحث أن نترجم لك شيئا من العبارات التى صدر بها هذا الأستاذ رسالته والتى تحمل كثيرا من معانى الإجلال لنبى المسلمين لنسجلها على كاتبها قبل أن نخوض فى أخطائه العلمية ومناقشتها وهاك هذه العبارات: قال: «قبل الدخول إلى أعماق المسألة أحرص على أن أعلن أننى أطرح بادئ ذى بدء كل نظرية تميل إلى الارتياب فى إخلاص محمد.. إن كل تاريخ هذا النبى يبرهن على أن خلقه واقعى جدى محمود.. ينبغى الوفاق على أن النبى كان رجلا ذا ذكاء عظيم فإن الكيفية التى استطاع بها أن يحرز الغنى والاعتبار بعد أن كان معدما يتيما، مقدرا له منذ الطفولة أن يقذف به بين أحضان المتربة

والبأساء[1] وإن نضوج عقله وحكمته اللذين برهن عليهما عند ظهور أول أوحائه، وإن الفن الذى عرف كيف يجمع به قبائل العرب رغم انقساماتهم التى دامت عدة قرون وكيف يميز به ما ينبغى أن يبقى من دساتيرهم، وما ينبغى أن يلغى منها، وإن إبداع أسلوبه الذى لا نظير له، بل الذى لم يستطع أى عربى أن يدرك ما اشتمل عليه من أفكار، كل ذلك يدل على أنه كان لديه فكرة واضحة عن الحقيقة، وأن الحلم والخيال لم يكونا ميزتى عبقريته، ولكن ميزتى هذه العبقرية كانتا الذوق وموهبة حسن الاتجاه فى الفهم والعمل.

وأية فائدة كانت تعود عليه فى مبدأ مهمته من أن يقدم الخيالات المحضة إلى الناس فى صورة حقائق وإلهيات؟ هل يمكن أن يفترض أن الطمع فى أن يحكم مكة والجنس العربى والعالم أجمع قد استولى فى ذلك العصر المتأخر[2] من حياته،

(١) خلط المستشرقون بين الفقر ونبل المولد لدى النبى ﷺ فارتاب بعض جهلائهم بتاريخ عبدالمطلب الماجد فى رفعة عنصر النبى وتبعهم الدكتور طه حسين فى هذه الفكرة السخيفة فى كتابه « فى الأدب الجاهلى» وسنناقش هذا الرأى اليوم بعد انتهائنا من ترجمة هذا النص.

(٢) يقصد بكلمة العصر المتأخر: الوقت الذى بدأ فيه النبى بالصدع برسالته، وهو زمن بلوغه سن الأربعين.

وأنه لكى يحقق هذا المشروع الهائل فكر فى أن يكون رئيسا دينيا، وبهذه الطريقة يصبح قويا كل القوة، ولكن هذا لا يمكن أن يتفق مع ميله العادى إلى العزلة ومع تلك الظاهرة غير القابلة للاعتراض، وهى أنه ظل إلى عهد البدء بمهمته بعيدا عن الحياة السياسية، ولا مع تلك العقلية العربية الساخرة المرتابة الأجنبية -ولو فى ذلك العصر على الأقل- عن النظر التنسكى، فلو كان الطمع هو وحده الذى دفعه لوجد فى نفسه من سداد الرأى ما يحمله على أن يسلك طريقا آخر أقرب وأكثر مباشرة للحصول على التأثير الذى كان مولده وثروته[1] قد صيراه جد مشروع، بل كيف كان يتشدد كل ذلك الزمن فى أن يفرض على المكيين تلك المعتقدات التى كانت تظهر لهم مضحكة، والتى - مع بعدها عن أن تحقق له السلطان - كانت تتضافر على نزع اعتباره من نفوسهم؟، إنه لم يقتنع بأنه يجب عليه أن يبحث عن أعوان خارج مكة وضدها إلا فى الوقت المتأخر، وبعد أن يئس من أسباب انتصاره، إن طريقته فى العمل هى طريقة رجل ملهم مقتنع بأن جميع الناس مثله سيعترفون بإلهية أصول الكلام الذى سمعه والذى هو يردده بكل بساطة وبدون أن

(١) يقصد الثروة التى حققها النبى من تجارته أولا، ومن زواجه بالسيدة خديجة ثانيا.

يسأل نفسه لحظة واحدة: هل لو وفق بين كلامه وبين عقلية معاصريه يمكن أن يكون حظه فى إقناعهم أعظم من حظه الحاضر؟ غير أنه حين أصبح فى المدينة على رأس جيش هجر الاقتصار على الحماس الأول، إذ من الواضح أنه لو ظل منحصرا فى ذلك التحمس البحت بكل بساطة لسارع حزبه إلى الانحلال، ولما رأى ألبته انتصار مذهبه، فبعد أن كان نبيا على نهج أسلافه من الإسرائيليين، صار رئيسا دينيا وعسكريا، وإذ ذاك بسط مزاياه الرئيسية كقائد ومنظم.

«كان محمد يرى الغاية ويتبعها بفطرته كسياسى مستنير، وبإلهامه كنبى مخلص»[1].

الآن وبعد أن انتهينا من هذا النص الذى أثنى فيه المؤلف على النبى ﷺ وسجل فيه عبقريته وإخلاصه ومقدرته السياسية وقبل أن نبدأ فى عرض آراء هذا الأستاذ الخاطئة ومناقشتها كما وعدنا القارئ يجب علينا أن نقف هنيهة عند مناقشة الفكرة التى أشرنا إليها فى الهامش رقم ١ من هذا المقال، وهى: «كيف يمكن التوفيق بين البؤس المادى الذى نشأ فيه النبى وبين القول برفعة أسرته؟»

(١) انظر صفحة ٦ وما بعدها من كتاب «محمد ونهاية العالم» لكازانوفا.

لم يستطع المستشرقون أن يحلوا هذه المشكلة، فتخبطوا فيها تخبط العشواء، فذهب «كازانوفا» إلى أن القول برفعة مولد النبى هو فى الأغلب خرافة، ولو كان حقاً لهيأ له مولده مركزا عظيما قبل أن يغتنى، ولكن المأثور من سنته لم يحدثنا عن شيء من ذلك، وقد اعتنق «كاتيانى الايتالى» فى كتابه: «تاريخ الإسلام»(١)، وكذلك «جويج» و«فوليرس» هذه الفكرة الخاطئة وأيدوها فى مؤلفاتهم بأدلة هى نسيج من الفروض والأوهام.

غير أن أسخف أفكار هؤلاء الأساتذة جميعا هى فكرة «الأب لا مانس» التى تزعم أن محمدا هو طفل فقير مجهول المولد تبنته أسرة عبدالمطلب، ومن العجيب أن هذا الأستاذ المضحك قد اتخذ دليلا على هذه الفكرة التى هى عار على صاحبها وحده قول القرآن: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ (الضحى: ٦-٨).

كنا نحب أن نسهب فى إظهار سخف هذا الرأى وضآلته فى

(١) هو كتاب ضخم فى تسعة مجلدات.

ميزان العلم بسبب ما احتوى عليه من مخالفة أوليات المنطق، بل أوليات التعقل الساذج، ولكننا فضلنا الإيجاز، لأنه غير جدير بالإسهاب، إذ لو كان صحيحا لفضل العرب المتكبرون المتعجرفون أن ينمحوا إلى آخر طفل من أولادهم على أن يحنوا رؤوسهم لرجل شريد مجهول المولد، ولما أجاب زعماؤهم كسرى حين سألهم عن نسبه بأنه خيرهم حسبا ونسبا، ولما ارتضى زعماء القبائل تحكيمه بينهم حين اختلفوا على وضع الحجر الأسود، ولما بايعه أبوطالب الجبار على مناصرته رغم أنه لم يعتنق دينه، ولما تردد زعماء مكة فى الإقدام على قتله حين ضايقهم بالدعوة إلى الإسلام كم فعلوا رهبة من أسرته، ولما شج حمزة رأس أبى جهل حين جرؤ على شتمه، ولمنعت العنجهية المغالية أسر: خديجة، وأبى بكر وعمر وعثمان من مصاهرته، ولرأينا أفانين الهجاء وضروب السب والإقذاع تتجه إلى مولده وأسرته كما كانت العادة المألوفة عند العرب، ولما استطاع أن يجابه عظماء العرب بذكر أجداده فى بيئة كان نصف موهبتها ينحصر فى حفظ الأنساب، وأخيرا لو كان كذلك لما رأينا له أخوالا من أسرة بنى النجار بالمدينة، وهى فرع من قبيلة قريش المتكبرة التى

يستحيل عليها أن تزوج ابنتها آمنة من رجل وضيع!!

هذا، ولا نريد أن نستمر في سرد الأدلة الناصعة على بطلان ذلك الرأى، لأنه لا يبعد على هذا القسيس أن يزعم أن كل هذه منتحلات وضعها المسلمون، ليموهوا بها على العقول كما تعود كثير من المستشرقين أن يتهموهم إلا أننا نحب أن نذكر لك هنا على سبيل الاستئناس رأى الأستاذ «كارادى فو» في هذه الفكرة السخيفة، قال:

«إن الأب لامانس الذى يلتقط بكل سرور جميع الإشارات البسيطة التى من شأنها أن تحط من مقادير عظماء رجال الإسلام الأولين قد ظن أنه يستطيع أن يرتاب في منشأ محمد، فأخذ الآيات المذكورة في السورة الثالثة والتسعين من القرآن: ألم يجدك يتيما.. إلى آخره على ظاهرها، فاتخذ من محمد طفلا يتيما نشأ من مولد مظلم تبنته أسرة عبدالمطلب، ثم استغله بنو هاشم فيما بعد كسلعة للاتجار.. ونحن يظهر لنا أكثر بساطة أن نرى في هذه السورة دعوة إلى الاتعاظ.. فكأنها تقول: كل نفس بطبيعتها فقيرة شبيهة بيتيم آواه الإله ثم أغناه»[1].

لا يفوتنا قبل مغادرة هذا المجال أن نشير هنا إلى أن الدكتور

---

(١) انظر صفحتى ١٢٩ و١٣٠ من الجزء الثالث من كتاب «مفكرو الإسلام» للأستاذ «كارادى فو».

طه حسين قد سرق هذا الرأى من المستشرقين فاتهم المسلمين بأنهم رتبوا شرف مولد النبى كما شاءت لهم أهواؤهم حين رأوا مصلحة الإسلام فى القول بنبل مولده فقال: فى كتاب «فى الأدب الجاهلى» ما نصه: «فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبى يجب أن يكون صفوة بنى هاشم، وأن يكون بنو هاشم صفوة بنى عبدمناف، وأن يكون بنو عبدمناف صفوة بنى قصى، وأن يكون قصى صفوة قريش، وقريش صفوة مضر، ومضر صفوة عدنان، وعدنان صفوة العرب».

وأنت ترى من هذه العبارات أن كاتبها يريد أن يقول: إن المسلمين قد اقتنعوا بأن أسرة نبيهم يجب أن تكون فوق الأسر، وهى لم تكن فى الحقيقة كذلك فرفعوها.

وبما أنه رأى مسروق -فضلا عن أنه سخيف- فقد آثرنا أن يكون نقاشنا مع أحد أصحابه الحقيقيين، وقد أسلفنا ردنا على «لامانس» فى شىء من الإيجاز الجدير به، لتجافيه عن روح المنطق.

هذا وسنعرض فى الفصل الآتى آراء «كازانوفا» فى فكرة تبديل القرآن، وسنناقشه فيها الحساب!



أسلفنا لك فى الكلمة السابقة أننا سنعرض فى الفصول الآتية لآراء العلماء الغربيين الذين خلطوا عن الإسلام آراء حسنة بأخرى سيئة، وقلنا لك: إننا اخترنا آراء الأستاذ «كازانوفا» لتكون مبدأ لهذا القسم، لأن كاتبها رجل معروف فى الأوساط العلمية الراقية في أوروبا من جهة، ولأن لنا به صلة خاصة من جهة أخرى، وقد أنبأناك بأننا اعتزمنا بسط هذه الآراء ومناقشتها دون رهبة ولاتهيب، لأننا نعلم أنه لا يتهيب مجابهة الخصوم إلا مبطل أو ضعيف، وقد سجلنا أن الذين يريدون من المسلمين إغلاق هذه الأبواب وتجنب تلك المجادلات لايتفقون وروح الإسلام فى شىء، لأنهم يصورونه فى صورة هيكل من زجاج رقيق يتحطم إثر قذفه بأول حجر يلقيه عليه خصم جاهل أو متعصب، وبما أننا لسنا من أولئك الضعفاء من ناحية، ولا من الذين ينزلون بالإسلام إلى دركة الضعف والارتجاف من مجابهة الخصوم من ناحية أخرى، فقد صممنا

على أن نعرض تلك الآراء الخاطئة على بساط البحث ثم نقيم الحجة على بطلانها، لنشهد الباحثين المحدثين على أن الإسلام دين منطق وبرهان، لا دين تعصب أحمق ولاضيق صدر وانفعال. ولما كانت لهذا الأستاذ آراء صدر بها كتابه تشهد بإخلاص النبى، وسمو نفسه، ورفعة عقليته، فقد صدرنا بها حديثنا عنه فى الكلمة السابقة، ثم وعدنا بعرض آرائه الأخرى التى قصد إليها من رسالته والتعليق عليها فى كلمة اليوم، وها نحن أولاء نوفى بوعدنا فيما يلى:

إن الغاية الرئيسية التى قصد إليها «كازانوفا» من كتابه «محمد ونهاية العالم» هى إثبات أن الإسلام، وعلى رأسه القرآن، قد حدثت فيه بعد وفاة النبى تبديلات جوهرية قام بها خلفاؤه لأغراض فى نفوسهم، وقد حاول التدليل على صحة هذه الفكرة بأدلة ضعيفة أجهد نفسه فى تقويتها وتدعيمها بكل ما أوتى من علم ومقدرة على الجدل، وهاك موجزا من عبارته التى بسط بها غايته وبراهينه، حتى تتيسر لك متابعة نقاشها وإبطالها، لأن محاولة إبطال الدعوى قبل بسطها وإيضاحها ضرب من العماية كما يقول الإمام الغزالى.

قال كازانوفا: «إنى أؤكد أن مذهب محمد الحقيقى إن لم

يكن قد زيف، فهو على الأقل ستر بأكبر العنايات، وإن الأسباب البسيطة التي سأشرحها فيما بعد هي التي حملت أبابكر أولا، ثم عثمان من بعده، على أن يمدا أيديهما إلى النص المقدس بالتغيير، وهذا التغيير قد حدث بمهارة بلغت حدا جعل الحصول على القرآن الأصلي يشبه أن يكون مستحيلا».

هذه هي النظرية التي أراد إثباتها في هذه الرسالة، ومن براهينه على صحتها ما يأتي:

(١) «إذا سلمنا بأن القرآن الحالي كله حقيقي، فإننا نلاحظ أنه لايوجد فيه أي تصريح عن الآراء السياسية، ولايشتمل على أية قاعدة تطبق على السلطة الدنيوية، ومن ذلك تتبع النتيجة الأولى التي تسود التاريخ العربي سيادة تامة، وهي أنه نشأ (على أثر موت النبي) حزبان متعارضان أعلن أحدهما أن الإمام أو السلطان قد عينه النبي، وقد وضع هذا الحزب للإمامة قواعد متينة ثابتة. وصرح الحزب الثاني أن هذه المسألة ليست مما يكترث له الدين وأنها لهذا يجب أن تعالج بحلول دنيوية محضة. والحزب الأول من هذين الحزبين هو حزب الشيعة الذي كان دائما حزب المعارضة بالمعنى الكامل، والذي ضم بين دفتيه المتضايقين الثائرين والخياليين والعصاميين، والذي

اشتهر بعقائد ميتافيزيقية وتنسكية يعتبر أكثرها أجنبيا عن العقلية العربية الخالصة، والذى لم يستطع أن يكون حكومات ثابتة إلا بين الفرس والمغاربة، والذى لم ينتصر إلا نادرا، والذى كان العرب يعتبرون أنصاره دائما خارجين عن الإسلام.

غير أن هذا الحزب مع ذلك قد بقي، وسر بقائه هو أنه أجاب على هذا السؤال الآتى الذى لابد من الإجابة عليه، وهو: لماذا نرى القرآن - وهو الذى لم يقتصر على تحديد العقيدة، بل حدد الأخلاق والحقوق وقوانين الأسرة - لم يعن أية عناية بهذا العنصر الذى ليس أقل جوهرية للمجتمع مما عنى به، وهو: النظام السياسى؟

وعند سكوت القرآن كوحى إلهى عن هذه المسألة، لماذا أهمل النبى معالجتها بطريقة شخصية ولماذا لم يعمل على تثبيت انتقال السلطة التى كان هو مدينا بها لنبوته والتى لم يكن أحد بعده يستطيع عقليا أن يتلقاها إلا عنه وحده؟ لأن محمدا إذا كان إماما للعرب لم يكن كذلك لأنه كان قرشيا من أسرة كذا أو كذا، وإنما كان إماما، لأنه نبى. ولهذا يجب أن يكون الاعتراف بخليفته تابعا لهذا النظام عينه. وبما أن النبوة

لاتتجدد بعده، فعلى الأقل كان ينبغى أن يكون تعيين الخليفة ناشئا من مصدر نبوى.

على هذا السؤال أجاب الشيعة بجواب هو أصل مذهبهم، وهو أن النبى لم يهمل هذه المسألة، بل عنى بها كل العناية وعين الإمام الذى يخلفه)).

يشير الأستاذ ((كازانوفا)) بجواب الشيعة هذا إلى رأيهم الذى نقله ابن خلدون عنهم فى مقدمته فى مسألة الإمامة، والذى جاء فيه ما يلى:

((ومذهبهم جميعا متفقين على أن الإمامة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظرالعامة، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ويكون معصوما من الكبائر والصغائر، وأن عليا رضى الله عنه هو الذى عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم، لايعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة))[1]. قال كازانوفا بعد ذلك: ((على عكس إجابة الشيعة على هذا السؤال، أجاب ابن خلدون (وهو فى هذا الجواب يمثل آراء إجماع المسلمين) فقال:

(١) انظر صفحتى ١٧٠ و١٧١ من مقدمة ابن خلدون.

«وشبهة الإمامية في ذلك إنما هي كون الإمامة من أركان الدين كما يزعمون، وليس كذلك، وإنما هي من المصالح العامة المفوضة إلى نظر الخلق، ولو كانت من أركان الدين، لكان شأنها شأن الصلاة، ولكان يستخلف فيها كما استخلف أبا بكر في الصلاة ولكان يشتهر كما اشتهر أمر الصلاة. واحتجاج الصحابة على خلافة أبي بكر بقياسها على الصلاة في قولهم: ارتضاه رسول الله ﷺ لديننا أفلا نرضاه لدنيانا، دليل على أن الوصية لم تقع، ويدل ذلك أيضا على أن أمر الإمامة والعهد بها لم يكن مهما كما هو اليوم»[1]

بعد أن أشار الأستاذ «كازانوفا» إلى إجابة الشيعة على هذا السؤال، وذكر نص إجابة ابن خلدون عليه، علق على ذلك بقوله:

«بقي علينا نحن الذين لسنا مسلمين والذين بناء على هذا لنا الحق في أن ننظر إلى محمد كرجل عبقري عادي أن نوضح لماذا أهمل العناية بمسألة لها هذه الأهمية الكبرى، فنعلن أن السبب في إهمال أمر الخلافة بسيط، وهو أن محمدا لم يفكر في أنه سيموت وسيترك خلفاء من بعده، بل اعتقد أن نهاية

(١) انظر صفحتي ١٨٤ و١٨٥ من المقدمة المذكورة

العالم قريبة، وأنه هو سيشاهدها، وهذه العقيدة بقرب نهاية العالم مسيحية محضة، ومحمد كان يقول عن نفسه: «إنه هو نبي آخر الزمان الذى أعلن المسيح أنه سيجيء ليتمم رسالته».

وهذه الفكرة كما كانت عند محمد، كانت عند المسلمين الأولين، وإذا كان المسلمون المتأخرون لم يتحملوا أن يستسيغوا غلطة كهذه من نبيهم، فإنهم لم يقلوا عن أسلافهم فى الاحتفاظ فى هذا الشأن بكلام له اضطروا إلى أن يلووا معانيه.

هذا هو البرهان الأول الذى ساقه «كازانوفا» ليؤيد به زعمه أن النبى كان يعتقد بفناء العالم قبل موته، وأن القرآن قد احتوى هذه العقيدة، وأن الصحابة قد تنبهوا إلى هذه الورطة فمدوا أيديهم إلى القرآن بالتغيير، ويتلخص هذا البرهان فى أن النبى لما كان مؤمنا تمام الإيمان بأن العالم لن يستمر بعد وفاته وأن الساعة ستقوم قبل موته، فقد أضرب تمام الإضراب عن تعيين من يخلفه على أمر المسلمين، لأنه لن يكون بعده - فيما يعتقد- خلافة ولا خلفاء ولامسلمون ولاكفار، وأن النبى لم يختر أبا بكر إلا ليخلفه فى الصلاة أثناء مرضه، وأن الصحابة لما رأوا أن الشمس تشرق وتغرب، والعالم كما هو، والساعة لم تقم، أدركوا أنه لابد لهم من تلافى هذا الأمر، وإلا لتهدم صرح

الإسلام، فبادروا إلى توطيد الحالة السياسية، وبايعوا أبابكر مبررين بيعته باختيار النبى إياه إماما فى الصلاة. ولما سئلوا كيف أن القرآن والنبى قد أهملا الرياسة السياسية؟ أجابوا بأنهما قد أهملاها لصغر شأنها عن شأن إمامة الصلاة التى اهتم بها النبى وعين لها أبابكر، ولما كان التعيين للأعلى يقتضى بالأولوية التعيين للأدنى، فقد صح أن يكون أبوبكر إماما سياسيا كما كان إماما دينيا.

ونحن نعلن أن هذه الفكرة باطلة من أساسها، وأن ما تقدم أو ما سيجىء من براهينها أوهى منها وبما أننا لم نقدم من هذه البراهين إلا برهانا واحدا، فيجب أن نقصر مناقشتنا اليوم عليه إلى أن نسرد البراهين الأخرى فنناقش كلا منها على حدة. وهاك مناقشة برهان اليوم:

أسس «كازانوفا» هذا البرهان على أساس خيالى، وهو أن النبى لم يعن بأمر الإمامة السياسية، فهل يساعد المنطق أو أسلوب البحث الحديث هذا الأستاذ على أن يجزم بأنه ليس هناك سبب، حمل النبى على إهمال أمر الإمامة السياسية إلا عقيدته بفناء العالم قبل وفاته؟ وهل مجرد الفرض الخيالى يكفى فى نظر العلم الصحيح لأن يكون دليلا؟ ثم ألا يعلم هذا

الأستاذ أنه يحتمل أن يكون هناك سبب آخر منع النبى من تعيين الإمام السياسى غير عقيدته بفناء العالم، وأن من أولويات قواعد أرسطو وفرفريوس المنطقية قولهما: «ما تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال».

على أننا نؤكد للأستاذ وأنصاره أن هناك سببا آخر غير عقيدة فناء العالم هو وحده الذى منع النبى عن هذا التعيين، وأن هذا السبب ليس فى درجة الاحتمال، بل فى درجة اليقين الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذى تؤيده الشواهد الناطقة، والحوادث الجلية، والتاريخ الصحيح، والذى لايستطيع أى واحد من أنصار «كازانوفا» أن يجادل فيه، ذلك السبب هو أن النبى أعلن منذ الساعة الأولى لبعثته إلى اللحظة الأخيرة من حياته أنه رسول دينى، وأن مهمته العليا فى هذه الحياة هى إرشاد الناس إلى التوحيد والاستقامة، أما الرياسة السياسية والقيادة الحربية فهما ضرورتان من ضرورات الحياة احتملهما النبى احتمالا، لأنه لم يكن له منهما مفر. وإذاً، فهو لم يكن طاغية أو ديكتاتورا أو ملكا مطلقا حتى يعين ولى العهد من بعده ويفرضه على الأمة فرضا، كما كان ذلك متبعا فى الدول الأخرى، وكما حدث فى الإسلام فيما بعد.

لهذا تصرف النبى فى الأمر الدينى الذى يملكه، بل الذى هو مهمته الأساسية التى جاء من أجلها وترك الإمامة السياسية لمن يعنيهم أمر دنياهم من بعده.

على أني لا أدرى كيف يتفق فرض الإمام على الأمة مع مبدأ الشورى الذى أمر القرآن به النبى أمرا صريحا فقال:

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾

(آل عمران : ١٥٩)

﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾

(الشورى : ٣٨)

فلم يسعه إلا الخضوع والطاعة لهذا الأمر، وقد ظهر ذلك جليا يوم الخروج إلى غزوة (أحد) حين رأى النبى عدم الخروج، ورأى أصحابه الخروج، فأذعن للكثرة راضيا مغتبطا وتركهم يخرجون، بل خرج على رأسهم كأن الخروج كان رأيه الشخصى. وليست هذه الحادثة هى الوحيدة التى ظهر النبى فيها بأجلى المظاهر الدستورية، بل هناك عشرات الحوادث من هذا النوع يعرفها من له إلمام بالسيرة النبوية.

قد يعترض أنصار (كازانوفا) على هذا الإهمال بأن النبى عنى بما هو أقل شأنا فى مصالح الأمة من الخلافة، مثل سياسة

الأسرة، فلم يكن من الطبيعي أن يعنى بالأقل ويهمل الأعظم.

ولكننا نجيبهم على هذا الاعتراض المضحك بأن عناية القرآن والنبى بالأسرة تنحصر فى وضع القواعد المؤدية إلى نظامها وسعادتها، وهذه العناية لم تحرم منها سياسة الدولة فى القرآن أو فى السنة، بل كان لها منها فيهما حظ عظيم، إذ عنى القرآن وعنيت السنة بوضع قواعد: الشورى والعدالة والاعتدال، والعفة، والبشاشة، ولين الجانب، وكرم الخلق، للملوك والحكام:

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾

(آل عمران : ١٥٩)

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾

(النساء : ٥٨)

﴿ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى ﴾

(ص : ٢٦)

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾

(آل عمران : ١٥٩)

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

(القلم : ٤)

كذلك عنيت السنة بإيضاح أن مسئولية الحاكم مضاعفة ولو كانت رعيته من الحيوانات: (كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته)[1]، (دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض)[2].

وإذاً، فقد وضع القرآن والسنة دستور الدولة، ولكنهما لم يعينا الملك ولا نظام الحكم الذى يجب أن تسير عليه الأمة، بل تركا هذا التعيين لمن يهمهم الأمر من رجالاتها المسئولين، فكأنهما أعلنا أن الأمة حرة فى اختيار النظام الذى يروقها والملك الذى تريده على شرط ألا تكون الأهواء ولا الأغراض الخاصة، ولا المصالح الشخصية هى التى حملت الزعماء على اختيار نظام بعينه، أو هى التى تدفع الملوك إلى التكالب على الحكم أو تحول بينهم وبين تحقيق العدالة والعفة والتضحية بالمنافع الشخصية فى سبيل المنفعة العامة، فإذا رأى المسلمون أن هذه الشروط تتحقق فى أى نظام من أنظمة الحكم، فليس عليهم أى إثم دينى فى أن يأخذوا به، لأن الإسلام لايجيز القسر والاضطهاد إلا فى الأحوال التى لامفر

(١) صحيح البخارى.
(٢) صحيح البخارى.

فيها منهما، مثل حالات الفتن، وفساد الأنظمة الاجتماعية، وغيبة الأمن، وسيادة الفزع، وهذه مبادئ لا تحط من قدر الإسلام، بل على العكس هى تشرفه وترفع من شأنه فى نظر عقلاء الساسة والاجتماعيين.

وبناء على هذا كله، فإن الذى منع النبى عن تعيين الإمام هو روحه الدستورى المشبع بمبدأ الشورى، واحترامه للعدل، ويقينه بأن مهمته الأساسية دينية، وعلمه بأن الأزمان متغيرة والظروف حائلة، وأنه لهذا يجب أن يترك أمر الناس الدنيوى فى أيديهم بعد أن يوضح مسئولياتهم، وأن ينذرهم بأن تصرفاتهم محسوبة عليهم، وليست عقيدة فناء العالم قبل موته هى التى منعته كما تخيل الأستاذ كازانوفا.

إلى هنا لم نزد على أننا أبطلنا سببية عقيدة فناء العالم لإهمال تعيين الإمام السياسى، وأثبتنا أن السبب هو شيء آخر غير هذه العقيدة. أما وجود هذه العقيدة نفسها عند النبى فسنبرهن على بطلانه بالأدلة القاطعة فى الكلمة الآتية، فإذا فرغنا من إبطال هذا الدليل الأول لكازانوفا عرضنا لما أتى به بعد ذلك من أدلة، فبسطناه وناقشناه، حتى إذا انتهينا منه قذفنا به إلى الدركة الجديرة به وبأمثاله من الآراء الباطلة.



أسلفنا فى الكلمة السابقة بعض مزاعم الأستاذ «كازانوفا» عن القرآن وقلنا إنه ادعى أن النبى كان يعتقد أنه سيشهد قيام الساعة قبل وفاته، وأنه لهذا لم يعين الإمام الذى يخلفه، وأن أصحابه لما رأوا أن الساعة لم تقم قبل وفاته مدوا أيديهم إلى القرآن بالتبديل، لينجوا من تلك الورطة، وقد رددنا على فكرة تغاضى النبى عن تعيين الإمام بأن السبب فيه هو إيمانه بأن رسالته دينية قبل كل شيء، وتشبعه بروح العدالة والشورى، ووعدنا القارئ بأننا سنناقش شيئا من براهين هذا المستشرق على هذه الدعوى السخيفة، وإليك بعض هذه المناقشة:

ذكر «كازانوفا» كثيرا من البراهين على دعواه، ولما كنا لا نستطيع أن نستوعب هنا كل هذه البراهين، لأن بعضها ينبو عن المنطق، والبعض الآخر يعتمد على روايات أسطورية وأخبار خرافية وردت فى كتب المسعودى والمقريزى والطبرى وما

شاكل ذلك، فقد صممنا على أن ننتقى من هذه البراهين أقواها في نظر الباحثين، ليكون هدمها آية واضحة على أن دعوى هذا الرجل واهية الدعائم والأركان. وأقوى هذه البراهين عند العلماء هو في نظرنا ما اعتمد على القرآن أو على حديث ثبتت صحته.

غير أنه ينبغى لنا قبل الخوض مع هذا المستشرق فى مناقشة براهينه أن نسجل عليه أنه لم يفهم روح القرآن، بل لم يفهم روح اللغة العربية فى أغلب الأحيان. وفوق ذلك فإنه كثيرا ما يهجر النزاهة إلى الأغراض والأهواء، فيستخدم لغايته صدر جملة لو أنه أتمها لألفى القارئ فى عجزها ردا مفحما على فكرته. وهاتان الملاحظتان تدفعاننا إلى الاحتياط من خطة هذا المستشرق فى البحث، وتحملاننا على النظر إلى نتائج بحوثه بعين الحذر المرتاب.

ومهما يكن من الأمر، فإننا سنتعقب أهم براهينه على هذه الدعوى، لنثبت بطلانها أو ضآلتها فى ميزان البحوث العلمية.

قرر «كازانوفا» بديا أن القرآن أشار فى عدة مواضع إلى الساعة: أى إلى نهاية العالم والبعث والحكم الأخير، ولكنه لم

يحدد لذلك زمنا معينا:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(الأعراف :١٨٧)

ومع ذلك فإن فى القرآن آيات عديدة تتحدث فى وضوح عن قرب الساعة:

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾

(القمر: ١)

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾

(النحل : ١)

ولكن هذه الآيات لاتشتمل على شىء من التحديد، بل كل ما يمكن أن يستخلص منها هو شعور بأنه يجب أن ننتظر هذه الساعة فى كل لحظة.

على أنه إذا كان القرآن قد اقتصر على إثبات قرب الساعة ولم يتعرض لتعيين وقتها، فإن السنة تربط أضيق الربط وأحكمه بين بعثة النبى وقيام الساعة، فمن ذلك مثلا ما روى عن ابن عباس بمناسبة حديثه عن آية:

﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ ﴾

(النحل : ١)

قال: إن الله أوحى أولا آية:

﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ﴾

(القمر : ١)

فقلق الكفار، ولكنهم لما رأوا أن الساعة لم تقم عادوا إلى اطمئنانهم، فنزل قوله:

﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ ﴾

(الأنبياء : ١)

فرجع إليهم قلقهم ثم جحودهم، فأنزل قوله تعالى:

﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ (النحل : ١)

فرفع الكفار رءوسهم، فنزل قوله:

﴿ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ ﴾ (النحل : ١)

وبهذه المناسبة قال النبى: «بينى وبين الساعة كما بين هاتين، وأشار إلى ما بين سبابته ووسطاه[1]».

هذا الحديث هو عماد أول البراهين التى سنناقشها اليوم، وهو فى نظر كازانوفا من الأهمية بموضع عظيم، بل قد اعتبره أحد المستندات الأساسية لرسالته، لأنه فى رأيه تصريح بأن بعثة النبى مرتبطة ارتباطا مباشرا بقيام الساعة، وهو يؤيد هذا الرأى بتلك العبارة المضحكة، «إن تمثيل شيئين بأصبع اليد تعبير مألوف فى لغتنا الفرنسية يثبت بين هذين الشيئين علاقة ضيقة يمكن أن يعبر عنها بعدم قابلية الانفصال، إذ إن هذا التعبير صورة منتزعة من أعماق الإنسانية، ومعناه واحد فى جميع لغات العالم. وإذا فمن المحتمل إن لم يكن من المؤكد أن محمدا أراد بهذا التعبير أن يقول : إن مجيئى والساعة غير قابلين للانفصال[2]».

ومما ضاعف أهمية هذا الحديث فى نظر «كازانوفا» هو أن إجماع المسلمين منعقد على صحته، بل إن كثيرا من علمائهم

(١) انظر صفحة ١٦ من كتاب «محمد ونهاية العالم» لكازانوفا.

(٢) انظر صفحة ١٧ من نفس المصدر.

استخلصوا منه فروضا وعمليات حسابية أثبتوها فى كتبهم.

فمن ذلك مثلا أن الطبرى - فيما يرويه ابن خلدون والمقريزى - أجرى فى مشكلة الساعة العملية الحسابية الآتية:

حيث إن القرآن قال:

﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾

(الحج :٤٧)

وإن النبى قال: «إن وجودكم بالنسبة إلى وجود من سبقوكم كما بين العصر وغروب الشمس»، وقال أيضا: «إننى بعثت فى زمن كنت فيه أنا والساعة كهاتين» وأشار إلى سبابته ووسطاه، وقال كذلك: «إن بقاء هذا العالم هو أسبوع من العالم الآخر الذى يومه ألف سنة».

ولما كان ما بين العصر وغروب الشمس جزءا من أربعة عشر جزءا من اليوم، ولما كانت الوسطى تزيد على السبابة بجزء من أربعة عشر جزءا من الأصبع، ولما كان عمر الدنيا سبعة آلاف سنة، فقد وجب أن يكون ما بين النبى والساعة جزءا من أربعة عشر جزءا من عمر الدنيا وهو خمسمائة سنة.

غير أن السهيلي الذى عاش إلى ما بعد سنة خمسمائة وثلاثين للهجرة قد اقتنع بأن حساب الطبرى غير صحيح، وقرر أن هذا الحديث لا يفيد إلا قرب الساعة.

هذا هو موجز ذلك البرهان الذى ساقه الأستاذ «كازانوفا» في طليعة براهينه على دعواه الغريبة. ولكي نكون منطقيين فى نقاشنا ينبغي لنا أن نلفت نظره بديا إلى أن استدلاله على جزم النبى العربى بعدم قابلية انفصال بعثته من الساعة بما يراد من هذا التعبير فى لغة كازانوفا الفرنسية ضرب من الهراء المخجل الذى لا يليق بصغار المتعلمين فضلا عن العلماء والباحثين، إذ من الذى لا يخجل من أن ينسب إليه التاريخ أنه فسر عبارة فى لغة شرقية سامية بما يراد بمثلها فى لغة غربية لاتينية ؟ ومن الذى يجرؤ على الادعاء بأن روحى اللغتين متماثلتان أو متقاربتان ؟ وما يدرى كازانوفا أن هذه العبارة عامة منتزعة من الإنسانية كما يزعم ؟ أفلا يمكن أن يكون معناها فى اللغة الفرنسية عدم قابلية الانفصال، وأن تكون فى اللغة العربية مجرد تصوير للقرب أو محض تشبيه يفيد القرب وقصر المسافة التى تفصل بين بعثة النبى والساعة ؟ الحق أن موقف هذا المستشرق بإزاء هذه العبارة ضعيف مزر لا يليق بالباحثين

الذين يحترمون أنفسهم.

على أننا إذا أغضينا عن هذه السقطة وغفرنا له فهمه اتصال البعثة المحمدية بالساعة مباشرة وعاملناه معاملة من فهم مجرد القرب بينهما ثم نظرنا إلى اعتراضه على هذا القرب، ألفيناه فى نظر علماء الفلك ضعيفا واهيا، وألفينا قول النبى مؤيدا بأحدث آراء العلماء المعاصرين، لأن إجماع أولئك العلماء منعقد الآن على أن ما بقى من عمر الدنيا إلى جانب ما مضى منها يشبه حقا ما تزيد به الوسطى عن السبابة، وأن هذه الثلاثة عشر قرنا التى فصلت بعثة نبى المسلمين عن العصر الحاضر لا تكاد تعتبر إلا جزءا ضئيلا من عمر الكون لا يتعارض مع الإخبار باقتراب نهايته قبل مرورها، لأن العمدة فى تقدير هذا الاضطراب إنما هو نسبة ما بقى إلى ما مضى، وأكثر من ذلك أن أحد كبار علماء الفلك الغربيين قرر منذ أعوام فى محاضرة عامة أنه إذا أريد أن يقاس ما بقى من عمر الكواكب أو من عمر الكون بما مضى من السنين وجب أن يقدر ما مضى بعدد كمية من طوابع البريد، صف بعضها فوق بعض من سطح الأرض إلى قمة جبال الهملايا، وأن يقدر ما بقى منها بكمية تساوى ارتفاع إحدى المنارات البحرية، ونحن نحسب أن الأستاذ «كازانوفا»

يوافقنا على أن ما بين الوسطى والسبابة من فرق لا يقل عما بين المنارة وجبال الهملايا من هذا الفرق، كما أنه يوافقنا على أن آلاف السنين إلى جانب الملايين تعتبر ضئيلة إلى حد أن تصح الإشارة إليها بأُصبعي اليد، كما أننا نحسب أنه لا يخالفنا فى أن نسبة الثانية إلى الدقيقة هى بعينها نسبة المليون إلى الستين مليونا من السنين أو من القرون، وأنه مادامت موازنة نبى المسلمين كانت تتعلق بنسبة ما بقى من عمر الدنيا إلى ما مضى منه، فإنه ليس له أن يعترض اعتراضا علميا على هذا الحديث الذى يصرح بقرب الساعة. وليس أدل على ما نقول من وصف هذا النبى أمته بأنها فى وسط ما مضى من الخلائق كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود. فإذا استطاع كازانوفا أن يحصى شعر ثور، وأن يجعل ملايين المسلمين جميعا وحدة واحدة من عدد شعر هذا الثور، ويجعل الأمم السابقة بقدر ما بقى من الشعر مضروبا فى عدد ملايين المسلمين، أمكنه أن يصل إلى إحصاء عددى يتكافأ مع الإحصاء الزمنى الذى أخبر نبى المسلمين عنه بأن ما بقى منه إلى جانب ما مضى يشبه ما تزيد به الوسطى على السبابة.

أما تلك العملية الحسابية التى أجراها الطبرى فهى سخيفة مضحكة ليس الإسلام مسئولا عنها ولا مؤاخذا بها، لأن الإسلام مسئول عما ورد فى كتابه وما ثبتت صحته من أحاديث نبيه، وليس مسئولا عن آراء كل من هب ودب من معتنقيه وأنصاره أما قول القرآن :

﴿ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾

(الحج :٤٧)

فهو تشبيه أريد به أنه يتم فى اليوم الواحد بالقدرة الإلهية ما لا يتم من أفعال العباد فى ألف سنة من سنى دنياهم. وأما الحديث الآخر الذى استغله الطبرى فى عمليته الحسابية وهو قول النبى: «إن ما بقى من عمر الدنيا كما بين العصر وغروب الشمس» فهو - إذا صح - تشبيه بديع يشبه تشبيه السبابة بالوسطى الذى ورد فى الحديث الأول، وهو كسالفه لا يتعارض مع الآراء العصرية فى تقدير أعمار الأفلاك.

استشهد كازانوفا على دعواه هذه ببرهان ثان ورد كسالفه فى السنة فيما يزعم، وهو أن النبى كان يعتقد أن المسيح الدجال الذى لا شك فى شهوده نهاية العالم كان معاصرا له، وآية ذلك

أنه أشار إلى ابن سعيد اليهودى بقوله «هذا هو المسيخ الدجال» وأن تميما الدارى حدث النبى أنه كان مسافرا فوق البحر مع عدد من بنى عمه فألقت بهم عاصفة على إحدى الجزائر فرأوا فيها حيوانا هائلا مغطى بشعر طويل فسألوه عن شخصيته، فأجابهم الحيوان بأنه الجساسة التى ستظهر فى آخر الزمان، ثم قالت لهم : احذروا سيد القصر، فنظروا فرأوا رجلا مكبلا بسلاسل من حديد مربوطة فى عمود من حديد، ومن أوصافه كذا وكذا، ثم حدثه فأنبأهم بأنه المسيخ الدجال، وأنبأهم بوقوع عدد من الملاحم، ثم أعلن أنه لن يدخل مدينة النبى.

بعد أن ذكر الأستاذ كازانوفا هاتين الروايتين علق عليهما بقوله: «من هذا يتضح أن محمدا كان يعتقد أنه سيشهد نهاية العالم».

لا ريب أن هذا البرهان هو أضعف من سالفه، لأنه يعتمد على روايتين، أما أولاهما وهى إطلاق النبى اسم المسيخ الدجال على ابن سعيد الإسرائيلى، فإذا صحت فإن ما فيها لا يخرج عن كونه ذما لهذا الإسرائيلى وإهانة له من النبى بإطلاق اسم

المسيخ الدجال عليه، كما يقال هذا شيطان، وهذا وحش، وهلم جرا، ولا يعقل أن يكون هذا الإطلاق حقيقيا على ظاهره حتى يستند الأستاذ كازانوفا إليه فى إثبات نظرية علمية، اللهم إلا أن يكون هذا الأستاذ كالغريق الذى يتعلق بالقش أملا فى أن ينجو من الغرق.

أما الرواية الثانية فقد نقلها كازانوفا عن مروج الذهب للمسعودى، وإذاً فهى ضمن ما أشرنا إليه فى أول هذه الكلمة من الروايات الخرافية التى صرحنا بأننا لن نقيم لها وزنا لسقوط قيمتها فى نظر البحث الصحيح الذى يعتمد على اليقينيات.

هذا، وسنعود إلى مناقشة بقية براهين كازانوفا التى تصلح للمناقشة.



أشرنا فى الكلمات السالفة إلى ما حسبه «كازانوفا» براهين حاول أن يدلل بها على صحة دعواه، وذلك كبراهين إغضاء النبى ﷺ عن تعيين الإمام السياسى، وقوله : «بينى وبين الساعة كهاتين»، ودعوته أحد معاصريه بالمسيخ الدجال، وغير ذلك

مما توهم هذا المستشرق أنه يثبت اعتقاد النبى بقيام الساعة قبل موته، وأبنّا ما فى هذه البراهين من ضعف وتخاذل، وأثبتنا أنها لا تستطيع أن تثبت لحظة واحدة أمام المنطق المستقيم، واليوم نريد أن نعرض لما بقي من هذه البراهين الهزيلة فننزلها المنزلة التى تستحقها من الهوان كما فعلنا بسوالفها :

يعتبر هذا البرهان الرابع أهم براهين «كازانوفا» وأخطرها فى نظره ونظر أشياعه، لأنه حاول فيه أن يثبت أن فى القرآن، كما فى السنة، آثارا تشهد بأن الصلة بين بعثة النبى وبين الساعة متينة وثيقة، وأن موت النبي سيكون ضمن الموت العام الذى هو نتيجة مباشرة للطامة الكبرى، وهى قيام الساعة. وإليك كيف يسوق هذه الحجة :

أشار القرآن فى كثير من آياته إلى نهاية العالم والموت العام : فقال:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ (الزمر:٦٨)

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾

(النمل: ٨٧)

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

(آل عمران : ١٨٥)

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

(الأنبياء: ٣٥)

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

(العنكبوت: ٥٧)

مما لا ريب فيه أنه لا يمكن تطبيق الآيتين الأولى والثانية إلا على الفريق الأخير من الناس، وهم المعاصرون لقيام الساعة، أما الآيات الثلاث الباقيات فقد أتى بها لإثبات تعميم الموت وحلوله بكل حي، ماضيا كان أو حاضرا، ولكن ينبغي أن نعرف أن جميع الآيات التي تعرضت لفناء العالم أو لعمومية الموت

ربطت بينهما وبين البعث ربطا محكما، أى أن هذه الآيات أعلنت أن البعث لابد أن يتلو الموت العام مباشرة. فلندرس الآن الآيات المتعلقة بموت النبى على ضوء هذه القاعدة.

قال القرآن:

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾

(الزمر: ٣٠-٣١)

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

(الأنبياء : ٣٤ - ٣٥)

فإذا نظرنا إلى هذه الآيات، ألفينا أنها تصل البعث بموت محمد، كما وصلت الآيات السابقة البعث بالموت العام وفناء العالم.

على أن أحقية اثنتين من هذه الآيات مشكوك فيها، إذا لم تثبت نسبتهما إلى النطق النبوى، بل إن أبا بكر كان هو الوحيد الذى نطق بهما على أثر موت النبى فأقره المسلمون عليهما،

وهما قول القرآن :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾

(آل عمران: ١٤٤)

وقوله :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾

(الزمر: ٣٠)

أفليس لنا الحق فى أن نظن أن الآية الثانية على الأقل قد صنعها أبوبكر من أساسها بعد موت النبى؟

ومهما يكن من شيء، فإن هاتين الآيتين، حقيقتين كانتا أم مصنوعتين، إذا فهمتا كما أراد أبو بكر أن يوجههما، تنصان على أن النبى يجب ألا يشهد الساعة، ومع ذلك فيمكن أن نفهم الآية الأولى على أنها خطابية تريد أن تقرر القاعدة المنطقية في ذاتها، أى تريد أن تتساءل نظريا قائلة : أفإن مات فرضا أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ وفى هذه الحالة لا تقرر أنه سيموت قبل نهاية العالم، ويمكن أن نفهم الآية الثانية على أن

الاختصام عند الله تابع مباشرة لموت النبى ومعاصريه. وفى هذه الحالة يكون شهوده الساعة أمرا محققا.

أما إذا فهمتا فهما حرا غير مقيد ألبتة، لا بتوجيه أبى بكر ولا بتوجيهنا الذى أسلفناه آنفا، بل أخذتا على ظاهرهما، فإنهما لا تثبتان ضرورة أن محمدا يجب أن يموت قبل قيام الساعة، فإذا أضفنا إلى غيبة ضرورة موت النبى قبل قيام الساعة نصوصا قرآنية أخرى تفيد إمكان بقائه حيا إلى يوم الساعة، ونصوصا أخرى محتوية على وعود تختلف تحجبا وانكشافا صدرت من الله إلى نبيه بأنه سيشهد الساعة، أقول: إذا أضفنا هذه النصوص إلى ما تقدم فقد وجب أن تكون دعوانا صحيحة وأهم هذه النصوص هى النصوص التى تقول مخاطبة النبى:

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ (يونس: ٤٦)

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ (الرعد: ٤٠)

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾

(غافر : ٧٧)

فإذا اعترض بأن هذه النصوص ليست مشتملة على وعود صريحة بشهود النبى الساعة، وإنما هى مشتملة على الإمكان فحسب، قلت : نعم، هذا حق، ولكنه ينتهى بنا إلى الإقرار بأن الإله غير متأكد من الغاية ولم يستطع أن يحدد مصير نبيه، وأحسب أنه لا شيء يظهر لنا أكثر سخفا وبعدا عن التعقل من القول بأن هذا الإله - وهو سيد الأقدار - لم يستطع أن يصمم على أن يحدد مسألة بسيطة إلى هذه الدرجة، أو أنه يجهل ما إذا كان النبى سيموت أو سيعيش إلى نهاية العالم، فى حين أنه يقول : أنه يعلم بالساعة علما يقينيا، لكنه لا يريد أن ينبئ الناس بهذا العلم، وبناء على ذلك، أفليس من المعقول أن نقرر أن هذه الآيات قد مدت إليها يد التبديل، وأنها كانت قبل التبديل مثلا : سنريك بعض الذى نعدهم، أى أنها كانت نصا صريحا فى شهود النبى الساعة، ثم لما رأى أصحابه أن الساعة لم تقم

وضعوا صورة الشك فى هذه الآيات موضع صورة اليقين، وجعلوها :

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾

غير أن هذا التحوير الذى أوقعوه فى الآيات السالفة لم يكن من السهل عليهم إجراؤه فى بعض الآيات الأخرى، لتأليفها كلا متماسكا أوله بآخره تماسكا محكما إلى حد أنه لو وضعت فيه صورة التردد لانقلب هذا الكل المنسجم مشوها مضحكا.

لهذا أبقوا تلك الآيات الأخرى على حالها ولم يحدثوا فيها أى تغيير، فجاءت شاهدة على أن محمدا كان يعتقد بقاءه إلى شهود الساعة من جهة، وعلى أن الآيات الأخرى وقع فيها تبديل من جهة ثانية. وإليك تلك الآيات التى لم يكن التبديل فيها :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ
ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا
مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ
أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾
وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾
ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا
كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ
ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾
وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾

(الحجر: ٨٥ - ٩٩)

لاريب فى أن اليقين هنا هو الساعة، والمفسرون يوافقون على ذلك، وإذاً فالقرآن صريح فى أن الساعة ستأتى النبى وسيشاهدها هو شخصيا، ولذلك هو يأمره بأن يعبد ربه حتى تأتيه هذه الساعة. ومما يؤيد ذلك أن الفعل العربى الذى عبرت به الآية الخامسة والثمانون فى جانب الساعة، وهو فعل أتى، هو نفس الفعل الذى عبرت به الآية التاسعة والتسعون فى جانب اليقين، فقالت الأولى :

﴿ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾

وقالت الثانية : ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾

ومن هذه الآيات التى لم يقع فيها التبديل، وهى تنص على أن النبى سيشهد الساعة، قول القرآن :

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾

(ق: ٣٩)

﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ
ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾ (ق: ٤١– ٤٢)

﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾
(ق: ٤٤)

أما استنتاجنا الخاص بعد كل ذلك فهو يتلخص فى أن القسم الأول من القرآن كان بكل بساطة إنباء صريحا بنهاية العالم وقرب الساعة :

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا
سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ (النبأ: ١–٥)

وأن القسم الثانى منه عنى بأن يضعها موضع الأمر المجهول:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ
رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ
إِلَّا بَغْتَةً ﴾ (الأعراف: ١٨٧)

وأن القسم الثالث الذى كان النبى أثناءه مشغولا بالتشريع والقيادة الحربية، قد أهمل مسألة الساعة إهمالا تاما، وكانت الأقسام الثلاثة متمايزا بعضها عن بعض فى وضوح، فمزجها أصحاب النبى ببعضها لغايات فى نفوسهم، وأن كل الآيات التى نصت على شهود النبى الساعة وأمكن تبديلها قد بدلت، وما لم يمكن تبديله قد وجهوه التوجيه الذى أرادوه.

هذا هو موجز أهم براهين «كازانوفا» على هذه الدعوى بعد الذى قدمناه، فلنلخص أولا نقطه ثم نناقشها واحدة بعد الأخرى:

(١) زعمه أن صلة البعث بموت النبى كصلته بالموت العام.

(٢) ارتيابه فى آيتى ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ ﴾

و ﴿ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ﴾

(٣) زعمه أن المقصود بقول القرآن

﴿ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ ﴾

هو الساعة.

(٤) ادعاؤه أن هذه الآيات كان نصها أولا : سنريك بعض الذى نعدهم، ثم قلبت إلى صورة التشكيك فأصبحت : فإما نرينك .:. إلخ. وقد علل لهذا الزعم بأن الله أعظم من أن يجهل المصير فيتحدث بلسان الشك.

(٥) زعمه أنه وردت فى القرآن آيات صريحة فى وجوب شهود النبى الساعة كقول القرآن مثلا :

﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ ...إلخ.

(٦) زعمه أن كلمة «اليقين» المذكورة فى القرآن معناها الساعة، وبهذا يكون قوله :

﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾

معناه : حتى تأتيك الساعة.

هذا هو موجز نقط أهم براهينه، فلننظر الآن إلى أى حد هى متفقة مع التعقل:

(١) ادعى الأستاذ «كازانوفا» أن البعث ورد فى القرآن متصلا بموت النبى اتصاله بالموت العام. وغايته من هذا هى محاولة إثبات أن البعث سيبدأ بعد وفاة النبى مباشرة. فإذا نظرنا إلى الآيتين اللتين ساقهما فى موت النبى لم نجد فيهما

ألبتة ما يؤيد دعواه أقل تأييد، وذلك لأن الآية الأولى وهي :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾

معناها : إنك فانٍ قابل للموت، وهم كذلك فانون قابلون له، وإنكم ستموتون جميعا، كل بأجله، ثم إنكم سوف تبعثون وتختصمون أمام ذى الجلال والإكرام. والآية نص صريح ببعد زمن الاختصام عن زمن الموت بدليل التعبير بثم. ولو أن الأستاذ كازانوفا كان يفهم الفرق بين حروف العطف فى اللغة العربية لما جرؤ على أن يزعم هذا الزعم. ولكن هذا ذنب الجهل لحاه الله ! وفوق ذلك، فقد وضعت الآية يوم القيامة كظرف للاختصام، ولما كان الاختصام معطوفا على الموت بحرف ثم، وبالتالى بعيدا عنه، فقد وجب أن يكون ظرف الحدث المتأخر متأخرا عن ظرف الحدث المتقدم بالمسافة التى تسمح بها ثم. وفى هذا برهان قاطع على أن البعث ليس متصلا بموت النبى اتصالا مباشرا كما زعم هذا المستشرق.

أما الآية الثانية وهى :

﴿ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾

فلا شأن لها بنهاية العالم ولا باتصال موت النبى بالبعث أو بانفصاله عنه، وإنما هى وردت لتأنيب المقاتلين الذين تزعزعت نفوسهم حين أذاع أبو سفيان أن النبى قد قتل، ولا أدرى ما هى الصلة التى تخيلها «كازانوفا» فى هذه الآية بين موت النبى ونهاية العالم إلا أن يكون من الحالمين !

(٢) على أنى لا أدرى كيف يستشهد بهاتين الآيتين على هذه الصلة، وهو قد أعلن ارتيابه فيهما وعزا وضعهما إلى أبى بكر، وهنا تقودنا المناسبة إلى مناقشة النقطة الثانية، وهى أن أبا بكر هو الذى صنع هاتين الآيتين، فنقول لهذا الأستاذ : ألم تعترف أنت شخصيا فى مقدمة كتابك بأن النبى كان أعظم أهل عصره إخلاصا، وأطهرهم نفسا، وأقواهم عبقرية، ثم ألم تشهد بأنه هو الذى أطلق على أبى بكر اسم الصديق ؟ ثم أفلا يكون إطلاقه اسم الصديق على رجل جدير بالتضليل برهانا إما على الغباوة أو على النفاق ؟ وأنت أثبت له العبقرية والإخلاص وطهر النفس؟ هذا خلف يا أستاذ !

وفوق ذلك، فهل شارك كل أجلاء الصحابة أبا بكر فى هذا التزييف، أو كانوا جميعا من الغفلة بحيث تنطلى عليهم هذه

الحيلة، ونحن نعلم أنه كانت بينهم عقليات تلتهب ذكاء وعبقرية، ثم ألم يكن للإسلام خصوم طالما سمعوا من النبى أنه سيشهد الساعة ثم ألفوه قد فارق الحياة ولم تقم الساعة ؟ فهل تظن أن هؤلاء الخصوم كانوا يقابلون هذه الفرصة القاتلة صامتين دون أن يشنوا الغارة على الإسلام والمسلمين ؟

أضف إلى هذا أنه إن كان أبو بكر قد وضع هاتين الآيتين فمن الذى وضع الآيات والأحاديث الكثيرة التى تنص على أن الساعة سر قد استأثر الله بعلمه، وأن موت النبى سيكون حادثا بسيطا ضمن حوادث الكون العام كما كان موت من سبقوه من الأنبياء، وأن الحياة ستظل من بعده زمنا لا يعلم مداه إلا الله، وأن الساعة ستكون لها علامات، وأن الذين سيشهدونها هم أقل الناس إيمانا ؟ وهل وضع أبو بكر أيضا كل هذا دون أن يتنبه إليه أحد ؟ اللهم اشهد أن المنطق ليس له فى هذه الدعوى عين ولا أثر !

(٣) أما زعمه أن

﴿ بَعۡضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمۡ ﴾

---

(١) راجع الكشاف.

معناه الساعة، فهو زعم سخيف لأن المقصود بهذا البعض هو مصارع المكابرين يوم غزوة بدر وما هددوا به من عذاب [1]، وليس المراد هنا الساعة كما توهم الأستاذ كازانوفا . وإذاً فقد سقط هذا الزعم أيضا.

(٤) أما ادعاؤه أن هذه الآيات نفسها كانت أول الأمر: سنريك بعض الذى نعدهم ثم غيرت فجعلت :

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾

إلى آخره، فهو تخرص ليس لدى صاحبه عليه من دليل إلا أن الله أعظم من أن يجهل المصير فيعبر بعبارة الارتياب. ولو أن هذا المستشرق كان قد فهم روح القرآن لما هوى فى تفكيره إلى هذا الحد، لأن هذه عبارات تشكيك لا شك، والفرق بين الحالتين عظيم، ولكن هذه أيضا سقطة الجهل والسطحية والتسرع ! أما حكمة استعمال هذا التشكيك، فهى استئثار الله بعلم يوم وفاة النبى، وهل هو سيجىء، قبل مصارع أولئك المعاندين أو سيتأخر عنها ؟ وهو فى كلتا الحالتين يبشر نبيه قائلا : كن على يقين أنى سأريك مصارعهم إذا أبقيتك إلى ذلك

اليوم، وإذا توفيتك قبله فسأريك فى الآخرة ما سأصنع بهم فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

على أني لا أفهم أيضا كيف استساغ كازانوفا استئثار الله بعلم الساعة وإخفاءه إياها عن الناس جميعا، ولم يستسغ إخفاءه عنهم مصير أولئك المعاندين، وهل ستكون مصارعهم على مشهد من النبى أو سيتوفى قبل وقوعها فيرى مصيرهم الأخروى الذى هو أدهى وأمر ؟

(٥) أما ادعاؤه أن آية :

﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾

تدل على شهود النبى الساعة، وأن المنادى سينادى يوم فناء العالم، فهو ضرب من السخف المزرى، لأن المنادى المذكور فى هذه الآية هو الذى سينادى يوم الحشر لا يوم فناء العالم، بدليل ما أتى بعد هذه الآية من قول القرآن:

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ (ق :٤٢-٤٤)

ولكن يظهر أن الأستاذ كازانوفا لا يعرف كيف يفرق بين يوم فناء العالم، وهو آخر أيام الدنيا، وبين يوم البعث، وهو أجنبى عن الأول أجنبية لا تخفى على ذى عقل.

أما شهود النبى يوم الحشر واستماعه نداء المنادى فهما أمران لا ينكرهما المسلمون، بل يجب ألا ينازع فيهما أحد، وإلا لكان جاحدا شهود النبى الحساب الذى لا يمكن أن يتخلف عنه أى إنسان كائنا من كان عظمة أو ضعة.

(٦) أما ادعاؤه أن كلمة (اليقين) الواردة فى القرآن معناها الساعة، واستدلاله على ذلك باستعمال مادة الإتيان فى القرآن فى جانب الساعة حينا، وفى جانب اليقين حينا آخر، فهو أمر جدير بالإشفاق على هذا الأستاذ أكثر مما هو جدير بالنقد، لأن اليقين معناه الموت، وليس معناه الساعة، ولا يصح أن يكون غير ذلك، إذ إن اليقين الوحيد الذى يجب أن يمر بكل حى إنما هو الموت لا الساعة، لأن الساعة لا تقوم إلا على معاصريها، وبهذا لا يكون الأمر بالعبادة عاما، بل يكون خاصا مقصورا على أولئك المعاصرين.

أما استشهاده بمادة: أتى، فحسبى أن أقول له بإزائه : إنه يقال

في اللغة الفرنسية : أتت الكارثة وأتى «كازانوفا»، فهل يصح لنا بناء على هذا أن نقول : أن كازانوفا هو الكارثة ؟

بدليل صحة إسناد فعل أتى إليه وإلى الكارثة كما كان اليقين فى القرآن معناه الساعة بدليل صحة إسناد فعل أتى إلى اليقين وإلى الساعة ؟

أما بعد مناقشة هذه النقط الواردة فى براهين كازانوفا، فإننا نحب أن نسأله سؤالا لا تتعذر الإجابة عليه حتى على عقلية السوقة والأميين، وهو : إذا كان النبى يعتقد قيام الساعة قبل وفاته، فلماذا نظر إلى الحياة الاجتماعية هذه النظرة التى تدل على إيمانه ببقائها زمنا طويلا، فأتى لها بهذا الدستور الفخم، وذلك التشريع القيم الذى تناول به جميع أفرع الحياة الشخصية والمعاملات الاجتماعية، من زواج وطلاق، وعدة ونفقة ورضاع وتوريث ووصية وهبة وبيع وقرض ومشاركة، فهل كل ذلك قد شرع لمعاصرى النبى فقط ؟ وإذا كان ذلك كذلك، فهل يوصف بالحكمة والعبقرية اللتين وصفت أنت بهما النبى من يتعب نفسه من أجل التشريع لهذا الزمن الضئيل؟ ثم حدثنى بربك : كم وقع من المواريث فى تلك الأعوام التى

مرت بعد تشريع الميراث الإسلامى وقبل موت النبى ؟ ولماذا لم يترك النبى قومه يتعاملون ويتوارثون حسب تشريعاتهم القديمة مادامت الساعة ستقوم عليهم قبل انتقاله من بينهم:

هـــذا كـلام لـه خـبئ   معناه ليست لنا عقـول

هذا، ونأمل أن نكون قد وفقنا للرد على أهم النقط الأساسية فى هذا الكتاب السخيف الذى أحدث رنينا هائلا فى البيئات العلمية فى أوروبا، لأنه كان الأول من نوعه، ولأنه لم ينبر إلى الآن أحد من المسلمين للرد عليه بحجج قيمة.

طبع بمطابع



AL AZHAR MAGAZINE

المتن: ٧٠ جم
الغلاف: ١٥٠ جم كوشيه

مطابع